الإحالات القرآنية الصريحة إلى الكتب السماوية السابقة

إعداد

الدكتور

محمود عقيل معروف العاني

تدريسي

جامعة الأنبار ـ كلية العلوم الإسلامية ـ رمادي

isl.mahmooda@uoanbar.edu.iq

Issn : 2071- 6028

ملخص البحث:

إن القرآن الكريم كتاب الله الأخير المصدق لكتبه السابقة والمهيمن عليها لما فيه من شواهد وصور مناسبة للمرحلة التي تمر بها، فهو يختلف عن الكتب السماوية كل الاختلاف، فشأنه ليس كشأنها.

ومنه يمكن تلخيص أهم ما جاء في البحث على ما يأتي:

١) التصريح ببعثة النبي (ﷺ) وذكر بعض صفاته الشريفة في التوراة والإنجيل، والتأكيد على شن اعتى الهجمات والوقوف ضده وضد تعاليمه إلى قيام الساعة.

٢) ذكر أهم صفات الصحابة الكرام (ﷺ) في التوراة والإنجيل والذي كان له الدور الأكبر في تأهيلهم لقيام منهج للحياة والاستخلاف.

إضافة إلى أن مناسبة ذكر كل منها جاء متوافقا مع ما ارتكبته الديانتان من إهمال للجانب المادي أو الروحي، والذي إذا ما أهمل احدهما على حساب الآخر وقع الانتكاس.

٣) التأكيد الإلهي في التوراة والإنجيل على عقد الصفقة ببذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمته، وان ثمة صفات لا بد منها في مجابهة النفس للامتثال بها والحصول عليها في واقع السلم قبل الخوض في المعامع، ومن لم ينجح في السلم فهو بلا ريب لم يقاوم في حالة المواجهة والاحتدام، علما أن هذا الوعد غير مرهون في زمان بعينه ولا في مكان بعينه، إنما رهانه الصدق في البذل والتمسك بالصفات.

٤) وراثة الأرض لعباد الله الصالحين العاملين بمقتضى الأوامر واجتناب النواهي، وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ.

٥) التشابه في بعض التشريعات المكتوبة على بني إسرائيل والمتمثلة في القتول والأعضاء وتشريع القصاص ما يشهد أن مصدرها جميعا من عند الله تعالى رغم تحريفها.

٦) التركيز القرآني على التصريح بهذه الأمور الخمسة لأنها أسمى ما تدعوا إليه الإنسانية من قيم ودعائم لاستمرارها في كونها المنشود.

الكلمات المفتاحية : احالات ، قرآنية ، سماوية

ABSTRACT

Praise to Allah worthy of praising, prayer and peace be upon the prophet Mohammed holder of glory banner and upon his family and companions. The will of Allah required the Koran to be the last descented of the heavenly books with the highest status of all as they are no longer existed in their image status as being misrepresented by their owners by changing, adding and hiding.

The Koran contained so many clear facts stipulates the existence of such assignments in the holy books in which they did not exceed five verses only as they follow :

1-The explicit annunciation in the mission of the prophet Mohammed peace be upon him ,that mentioned a number of qualities in the Turat and the Gospel.

2- The reference to mention the qualities of the ideal generation in the first covenant and it purpose is to seize the opportunity to correct the mistakes to build the Islamic civilization and being aware of the Jews in their interest in the material side and leave the practical and the spiritual sides ,and Christians in their interest in the spiritual side and leave the material one .

3- The Divine confirmation of the deal to self sacrifice and money to prove the word of Allah in any time and place , to protect the religion from the futility of the abusers and of greedy ambitions.

4- the ambition of working hard to inherit the earth and that through combining faith and good deeds with the fear of all the fear of sins and take a lesson from the previous nations.

5- Participate in some of the legislations with the previous religions so that to endure and to save the humanitarian entity by legislating retribution that keeps the life of the community .

Through that we realise the importance of highlighting those texts for the establishment of humanity and maintain the subjectivity to enjoy the safety in both homes ,and that what man wishes most .

Keyword : Assignments, Quranic , heavenly

المقدمة

الحمد لله مستحق الحمد، والصلاة والسلام على رافع لواء المجد، محمد بن عبد الله وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين أولي العزم والجد، وعلى آله وصحبه بلا حصر ولا عد وسلم تسليما كثيرا. وبعد...

فقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولا وأعلاها منزلة ومكانة، إذ لم يعد لها وجود في صورتها المنزلة كونها حرفت على أيدي أصحابها سواء بالتغيير أو الإضافة والكتمان.

قال ابن كثير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب، وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]»[(١)].

ولما قضى الله عز وجل بقاء هذا الكتاب بجميع لوازمه وبحسب ما انزل على رسوله (ﷺ) وجه لتحقيق هذا الغرض الجليل النفوس البشرية، والأسباب الطبيعية والخارجية والحوادث التاريخية، فكلما كان يتلوا آية كريمة، وترن في أسماع المسلمين، إذا بهم يتقبلونها تقبلا، ويضمونها إلى صدورهم، وينقشونها في قلوبهم، ويتهافتون على حفظها واستظهارها تهافت الفراش على النور.

وإن لمن أكبر محاسن القرآن أصالة غير مشكوك فيها كل حرف نقرؤه نثق بأنه هكذا من قرابة أربعة عشر قرنا من الزمن غير مغير ولا محرف، علما أن كل دين جاء من عند الله ليكون منهج حياة يتولى قيادة الحياة البشرية وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها، سواء جاء لقرية من القرى، أو لأمة من الأمم، أو للبشرية في جميع أجيالها كافة.

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ [الشعراء]، فالقرآن مذكور في

(١) تفسير القرآن العظيم: ١١٦/٣.

كتب المتقدمين ليكون دليلا على صحته ثم أقام الحجة على قريش بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء] بأنه من عند الله آية لكم وبرهانا، ليعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث.

لقد احتوى القرآن الكريم بين دفتيه إرشادات ونصائح ومواعظ وقيم وأحكام ووصايا تشابه بدرجة كبيرى ما كتب على الأمم السابقة من قبل، منها ما هو مصرح به، ومنها ما هو على سبيل التلميح، مما دفعني للغوص في أعماقه لاكتشف سر التركيز على تلك النصوص في الصراحة بالذكر دون غيرها، والأسلوب القرآني فريد في نوعه بذكر الأشياء في مواضع وعدم ذكرها في أخرى، والقصد إثارة انتباه المتأمل فيها، إذ لابد أن يكون وراء ذلك من سر وهذا هو مكمن الإعجاز.

وكان منهجي في بحثي هذا أن استقصيت الآيات التي صرح القرآن الكريم بوجودها في الزبور والتوراة والإنجيل، فوجدتها لا تتعدى خمس آيات فقط.

وقد عمدت إلى تقسيم البحث – بعد مقدمة له – إلى خمسة مباحث:

الأول: البشارة بالنبي (ﷺ) وذكر بعض صفاته. **الثاني:** صفات أصحاب النبي (ﷺ).

الثالث: الحث على الجهاد بالنفس والمال. **الرابع:** وراثة الأرض للصالحين.

الخامس: مجموعة الأحكام المشرعة لبني إسرائيل.

أما **الخاتمة** فأوجزت فيها خلاصة البحث وأهم النتائج التي توصلت إليها.

وكان جل اعتمادي في المصادر على كتب التفسير ذات الصلة في متناول الموضوع باختلاف مضمونها، فضلا عن الكتب الأخرى التي يستنير الفكر منها بومضات مضيئة تقدح في ذهن الباحث من لمسات.

كما لا يفوتني ذكر ما ورد في الكتب المقدسة من نصوص مع تحريفها لوجود الشبه فيها مع بعضها وهو ما سأشير إليه وكل في موضعه.

ومن الملاحظ أن أصل البحث إثبات ما جاء في الكتب السماوية وان لم أجد لها شيئا من الذكر فيها؛ لأن القرآن هو الكتاب المحفوظ وما سواه فلا، وعندها فليس من الضروري أن أجده في

كتبهم، إنما الضروري التركيز على مدى الأهمية التي ركز القرآن عليها وأحالها إليها للعلم اليقيني بوجودها ومعرفة مدارتها وهذا من أعظم غاية البحث.

هذا وأسأله تعالى التوفيق والهداية والرشاد في كل ما أسطره، ولست معصوما من الزلل، راجيا عفوه ورضاه وتسديد الخطى في كل ما أقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

المبحث الأول

البشارة بالنبي (ﷺ) وذكر بعض صفاته

أحالت الكتب السماوية السابقة من التوراة والإنجيل نصوصا بشرة برسول الله (ﷺ) باسمه وصفته وصفة أتباعه غير أنها أصابها التحريف والبتر مثلما أصاب بقية الكتب، لعناية أهل الكتاب بتحريف النصوص المبشرة به (ﷺ) خاصة، وكثيرا ما لجأ أهل الكتاب إلى إخفاء هذه النصوص أو تفسيرها بشكل محرف حتى لا تتفق مع صفاته (ﷺ).

ويخصص الحق أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ.....١٤٦﴾ [البقرة]، فالكتب السابقة كما ذكر القرآن تنص على ضرورة الإيمان بالرسول النبي الأمين الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وفيها من العزاء الرباني وشد العزائم ببيان أن النبي (ﷺ) مبشر به في التوراة والإنجيل، وأن إتباعه واجب عليهم، وأنهم منحرفون عن الدين إن لم يؤمنوا به، وبهديه الذي جاء إلى الخليقة الإنسانية جمعاء.

وهو ما نص عليه الباري ﷻ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف].

وإن مما ينبغي الإشارة إليه أن الآية الكريمة أوضحت تسع صفات اتصف بها النبي (ﷺ) التي نُصَ عليها بالصريح في التوراة والإنجيل، بيد أن لهذه الآية صلة بالتي قبلها توضح سبب ما جاء بها، لكني أرجأت الحديث عنها بعد الحديث عن الصفات معرجا فيما بعد على مكنون صلتها بها وهو من باب تقديم ما حقه التأخير. وسأفصل القول في بيان معانيها مركزا على متناول موضوعي في المطالب الآتية:

المطلب الأول

الرسالة والنبوة والأمية

إن مما تمثلت به الصفات الثلاث الأولى من النص هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾.

وابتداء فمعنى الإتباع هو: «الاقتداء فيما جاء به (ﷺ) اعتقادا وقولا وفعلا»[١].

ومعلوم أن معنى الرسول هو المرسل من قبل واحد إلى واحد أو جماعة.

وفي القرآن الكريم: هو المرسل من الله تعالى لخلقه لتبليغ شريعته وبيان التكليف الذي كلف الناس إياه، والنبي: من أنبأه الله تعالى، وشرفه بتلقي وحيه[٢]، وكلاهما اسمان لمعنيين؛ لكن الرسول أخص من النبي[٣].

وإنما سماه رسولاً بإضافته إلى الله ﷻ لأنه الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه لرسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم؛ ونبيا لأنه رفيع القدر عند الله تعالى[٤].

وأما وصفه بالرسالة والنبوة، فإن الرسالة تلزمها النبوة في المعنى القرآني، لأنه لا يمكن أن يعد رسولا إلا إذا كان نبوة عن الله[٥].

والملاحظ أن تقديم وصف الرسول كونه الوصف الأخص والأهم، لأن في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقاً بمن أتى بعد موسى (عليه السلام) من أنبياء بني إسرائيل، كونه اشتهر بوصف النبي الأمي، فصار هذا المركب كاللقب له، فلذلك لا يغير عن شهرته، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن[٦].

إضافة إلى الاهتمام بمعنى الرسالة، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم؛ ولذلك رد رسول الله (ﷺ) على البراء (رضي الله عنه) حين قال: {وبرسولك الذي أرسلت} فقال له: {قل آمنت بنبيك الذي أرسلت}[٧]، فإن في قول البراء تكريرا للرسالة؛ وهو معنى واحد فيكون كالحشو الذي لا فائدة فيه، بخلاف تعليم النبي (ﷺ) له فإنه لا تكرار فيه.

وعلى هذا فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا؛ لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ، وافترقا في أمر خاص وهي الرسالة[٨].

---

(١) البحر المحيط: ٤٠٢/٤.

(٢) ينظر: زهرة التفاسير: ٢٩٦٩/٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٤٦٢/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٨/٧.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٨٠/١٥، والسراج المنير: ٥٢٣/١.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير: ٢٩٦٩/٦.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣٣/٩.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء: ٥٨/١ (٢٤٧).

(٨) ينظر: المحرر الوجيز: ٤٦٢/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٨/٧.

كما أن الجمع بين وصفي النبوة والرسالة إشارة إلى أن اليهود بدّلوا وصف الرسول، وعبروا عنه بالنبي، ليصدق على أنبياء بني إسرائيل، وحذفوا وصف الأمي، وقد كانت هذه الآية سبب إسلام الحبر الأندلسي السموأل بن يحيى اليهودي(١).

وقد وصف الله تعالى هذه الأمة في الإنجيل بأن أناجيلهم في صدورهم ولو لم يكن رسم الخطوط لكانوا يحفظون شرائعه (ﷺ) بقلوبهم لكمال قوتهم وظهور استعداداتهم(٢).

وعلى الاختلاف في معنى الأمية من كونها نسبة إلى الأم كأنه باق على حالته التي ولد عليها من أمه لا علم له بالكتابة والقراءة، أو أنها نسبة إلى أمة العرب، إذ كانوا في الجاهلية لا يعرفون القراءة والكتابة إلاّ النادر منهم، وإن كان فيهم من يعرفون الكتابة وبعض العلوم، ولذا كان يطلق عليهم الأميون، أو نسبة إلى أم القرى وهي مكة منشأ ولادته (ﷺ)(٣)، إلا أننا ندرك أن أميته من أكبر معجزاته وأعظمها والتي يكمن بيانها في وجوه:

الأوّل: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرّة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فلا بدّ أن يزيد أو ينقص، أما رسول الله (ﷺ) فلم يحدث له ذلك، فكان ذلك معجزة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى].

الثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لكان متهماً في أنه ربما قرأ كتب الأوّلين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فكان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت].

الثالث: تعلم الخط شيء سهل فإن أقلّ الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ثم إنه تعالى آتاه علوم الأوّلين والآخرين ما لم يصل إليه

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣٢/٩.

(٢) ينظر: روح البيان: ٢٥١/٣.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٤٦٢/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٨/٧، والبحر المحيط: ٤٠٢/٤، وإرشاد العقل السليم: ٢٧٩/٣.

أحد من الخلق، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات(١).

وعليه فالأمية هنا لا شك هي أمية القراءة والكتابة، أما أمية العلم، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه بما علمه ربه عالم العلماء، وحكيم الحكماء، كما يقول سبحانه وتعالى مخاطبا له(٢): ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

وهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة التي بها يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم، فغير نظم البشر في تلك الحقبة الطويلة وأثر في حياة الأمم التي حوله أكبر الأثر بما شهد له المنصفون في كل الأديان(٣).

فالأمية إذاً من صفاته الخاصة ونعوته التي لا يشبهه فيها غيره من الأنبياء، قال الطبري: «لا يعلم من رسول وصف بهذه الصفة ـ أعني الأمي ـ غير نبينا محمد (ﷺ)»(٤).

وإلى هذا المعنى أشار ابن عاشور بقوله: «والأمية وصف خص الله تعالى به من رسله محمدًا (ﷺ) إتماما للإعجاز العلمي العقلي الذي أيده الله تعالى به، فجعل الأمية وصفا ذاتيا له ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أن كماله النفساني كمال لدني إلهي لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع أنها في غيره وصف نقصان، لأنه لما حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات الحق، وكان على يقين من علمه وبينة من أمره، ما هو أعظم مما حصل للمتعلمين صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من فيوضات إلهية»(٥).

وأما الحكمة من كونه أميا فهو ما أوضحه الجصاص:

«وأما وجه الحكمة في جعل النبوة في أمي فإنه ليوافق ما تقدمت به البشارة في كتب الأنبياء السالفة، ولأنه أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة; فهذان وجهان من الدلالة في كونه أميا على صحة النبوة ومع أن مشاكلة لحال الأمة الذين بعث فيهم وذلك أقرب إلى مساواته

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٥/٣٨٠، و اللباب: ٩/٣٤١ ـ٣٤٢، والسراج المنير: ١/٥٢٣.
(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ١١/ ٤٥٠.
(٣) ينظر: تفسير المراغي: ٩/٨١.
(٤) جامع البيان: ١٣/١٦١.
(٥) التحرير والتنوير: ٩/١٣٣.

لو كان ذلك ممكنا فيه، فدل عجزهم عما أتى به على مساواته لهم في هذا الوجه على أنه من قبل الله عز وجل»[١].

وهكذا كان رسول الله (ﷺ) لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كُتّاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

المطلب الثاني

دقة الوصف بنعته وأمر نبوته (عليه السلام)

تمثلت هذه الصفة الرابعة من النص بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾. قال قتادة: «يجدون نعتَه وأمرَه ونبوّته مكتوبًا عندهم»[٢].

وقال الطبري: «الهاء في قوله: **(يجدونه)**، عائدة على **(الرسول)**، وهو محمد (ﷺ)، كالذي»[٣].

والمعنى منه: أن ضمير الفاعل في **(يجدونه)** لبني إسرائيل وكذلك الضمير في **(عندهم)**، والهاء منه: لمحمد (ﷺ) والمراد صفته ونعته، ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم له وخوفاً على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان[٤].

والتعبير القرآني دقيق جدا إذ لم يقل: يجدون وصفه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل إنما قال: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾، كأن الذي يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبي عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف معرفة مفصلة وشاملة كما عرفته التوراة وعرفه الإنجيل[٥].

وزيد **{عندهم}** زيادة تقرير فشأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا في التوراة والإنجيل اللذين تعبّد بهما بنو إسرائيل سابقا ولاحقا وهما مرجعهم في الدين، والظرفان متعلقان بـ**(يجدونه)** أو بـ**(مكتوبا)**، وإنما ذكر الإنجيل والسياق في قوم موسى؛ لأن المخاطب به

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٥٩٣.

(٢) جامع البيان: ١٦٥/١٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٥/١٣.

(٤) ينظر: الكشاف: ١٥٦/٢، والمحرر الوجيز: ٤٦٤/٢، والتسهيل: ٣٠٤، والسراج المنير: ٥٢٣/١.

(٥) ينظر: تفسير الشعراوي: ٣/ ١٦٠٠.

بالذات بنو إسرائيل، وهو من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبي ﷺ والقرآن الكريم قبل مجيئهما فهو من باب الإخبار بما سيكون(١).

قال الرازي: «وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوبا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله؛ فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك المنعت كان مذكورا في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته»(٢).

ومما يشهد لهذا النص القرآني نصوص قرآنية أخرى فيها لمحة توافق مضمون المعبر عنها من إدراك صفات النبي (ﷺ)، وكذا الأحاديث النبوية والآثار أيضا، داعيك عما أورده المفسرون وغيرهم ممن توافرت لديهم نصوص من التوراة والإنجيل تؤيد ما نريد الوصول إليه، إذ أن كل ما يجدونه من صفات النبي (ﷺ) وأهداف دعوته فيما بين أيديهم من التوراة والإنجيل موضوع جدل وتشاد في مجال الإنكار والإثبات بين المسلمين وأهل الكتاب.

وابتداء ما جاء في القرآن الكريم من شواهد منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله أيضا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٧٩/٣، وروح البيان: ٢٥٢/٣، وفتح القدير: ٢٨٧/٢، وفتحُ البيان: ٣٤/٥، وتفسير المنار: ١٩٦/٩.

(٢) مفاتيح الغيب: ٣٨١/١٥.

فنجد في هذه النصوص القرآنية لمحات توضح ما نحن بصدده من ذكر النبي (ﷺ) في الأمم السالفة عامة وأهل الكتاب خاصة.

فعلى العموم ما يشهد له النص الأول من اخذ الميثاق من جميع الأنبياء، ولفتة دقيقة في التعبير بذكر النبيين بدل المرسلين ليشمل الجميع دونما استثناء، وما أدق قوله (ﷺ) في الشأن هذا {إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته}[١] وفي رواية انه سئل {متى جعلت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد}[٢]، فلم يُرسِل الله نبيا من الأنبياء إلا وقد أخذ عليه العهد والميثاق لأن خرج النبي محمد (ﷺ) في عهده أن يتابعه.

وأشار الطبري والقرطبي إلى أن الله تعالى قد أخذ ميثاق الأنبياء بأن يصدق بعضهم بعضا ويأمر بعضهم بالإيمان بعضا; فذلك معنى النصرة بالتصديق[٣].

«قال طاووس: أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر.... والرسول هنا: محمد (ﷺ) في قول علي وابن عباس (رضي الله عنهم) واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ .... فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد (عليه السلام) وينصروه إن أدركوه، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم»[٤].

قال ابن كثير: «فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوص به»[٥].

وأما على سبيل الخصوص فما ذكر في النصين بان أهل الكتاب كانوا يستفتحون به في الحرب، وان لديهم معرفة به اشد من معرفتهم بأبنائهم ويزيد.

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٨/ ٣٩٥ (١٧١٦٣). وقال الارنؤوط: صحيح لغيره.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤/ ٢٠٢ (٢٠٥٩٦). وقال الارنؤوط: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: جامع البيان: ٦/ ٥٥٧، والجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٢٤ـ ١٢٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٨.

أما استفتاحهم فكان اليهود يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه، وهو ما أورده ابن عباس رضي الله عنهما أن أهل الكتاب كانوا يستنصرون بخروج محمد (ﷺ) على مشركي العرب فلما بعث الله محمدا (ﷺ) ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه[١].

وأورد بعض المفسرين رواية أخرى مفادها: أن اليهود كانوا من قبل مبعثه (ﷺ) يستنصرون على مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا أحزنهم أمر أو دهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم.

فلما جاءهم ما عرفوا، يعني: محمدا (ﷺ) من غير بني إسرائيل وعرفوا نعته وصفته، كفروا به بغيا وحسدا، فلعنة الله على الكافرين[٢].

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض أتباع الأديان ولا يفهم أصحاب دين موجود أن دينا آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية؛ لأن رسالة الإيمان موصولة بامتداد الزمان، والرسل كلهم يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات[٣].

أما معرفتهم به (ﷺ) فلا شك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة، ورسول الله (ﷺ) كانت له سمات خاصة وهي التي تثبت شخصيته (ﷺ) المادية منها خاصة[٤].

ذكر ابن كثير أن الله تعالى «يخبر أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول (ﷺ) كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا»[٥].

وأورد القرطبي: «أن عمرا قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدا (ﷺ) كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه»[٦]، ولذلك أسلم (ﷺ) وكان من خيرة الصحابة (ﷺ) أجمعين.

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٣٣٢/٢-٣٣٤، وتفسير القرآن العظيم: ٣٢٥/١ -٣٢٦

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ١٤١/١-١٤٢، وزاد المسير: ٨٧/١، ومفاتيح الغيب: ٥٩٩/٣، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٣٦٦/٢، وتفسير القرآن العظيم: ٣٢٥/١ -٣٢٦.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي: ٤٣٨٢/٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٣٨٢/٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٦٢.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ١٦٣.

لقد كان أهل الكتاب يملكون المدخل الطبيعي للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة والإنجيل الصحيحين؛ لأن فيهما نعته (ﷺ) بالأوصاف المذكورة فيهما بأنه النبي الموعود لا التباس عليهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية في أن كلا منهما يقيني لا اشتباه فيه(١).

بالإضافة إلى ما ذكر على لسان ابن الصديقة، عيسى (عليه السلام)، وما وقع من تكذيب صريح بما بشر به بالبينات، إذ أن بشارته بالنبي محمد (ﷺ) تدل على أنه يجب على أتباعه أن يتبعوه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان لبشارته به فائدة بل إن الإنسان لا يبشر إلا بما يعود إليه بالخير، فكل من كفر بالنبي (ﷺ) من اليهود والنصارى وغيرهم فإنه كافر بالله؛ لأن الله تعالى أمر جميع العباد أن يؤمنوا به وبرسوله النبي الأمي، وبين أن هذا هو سبيل الفلاح والهدى والرشاد، وأن ما سوى ذلك فإنه ضلال وغواية.

فعن كعب الأحبار: «أن الحواريين قالوا لعيسى: يا رسول الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل»(٢).

«والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم بإتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث. وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: {أخبرنا عن بدء أمرك} يعني: في الأرض، قال: {دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت}(٣) أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه»(٤).

وقد ذكر محمد رشيد رضا عن احد الرحالة الانكليز أنه «رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي (ﷺ) وفيها يقول المسيح: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ وذلك موافق لنص القرآن بالحرف، ولكن لم ينقل عن أحد من

(١) ينظر: محاسن التأويل: ١/ ٤٢٨، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١/ ٣٠٢.

(٢) السراج المنير: ٤/ ٢٧٦.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣٨٠/٢٨ (١٧١٥٠)، وقال الارنؤوط: حديث صحيح لغيره.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١١١/٨، وينظر: جامع البيان: ٣٥٩/٢٣.

المسلمين أنه رأى شيئا من هذه الأناجيل التي فيها هذه البشارات الصريحة، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى ما لو ظهر لأزال كل شبهة عن إنجيل برنابا وغيره»[١].

إذن فالأوصاف الكلامية والشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال: إن أديان السماء تتعاند، بل إنها كلها متكاتفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زمانا ومكانا[٢].

والحاصل: أن محمداً وأحمد كلاهما اسم للنبي (ﷺ) فعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله (ﷺ) قال: {إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد، وقد سماه الله رؤوفا رحيما}[٣].

وأما ما ورد من الأحاديث والآثار، فعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله (ﷺ) في التوراة: قال: {أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ [الأحزاب]، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ لا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا}[٤].

وفي حديث طويل آخر أسوقه بالمعنى خلاصته: أن النبي (ﷺ) بعث مع دحية الكلبي إلى هرقل كتابا بالدعوة إلى الإسلام فأحب هرقل أن يعرف أحوال النبي (ﷺ) وأخباره فأمر بالبحث عن جماعة من مكة فأتي له بأبي سفيان فسأله عن أحوال النبي (ﷺ) وأخباره وعاداته فصدقه في كل جواب عن كل سؤال سأله إياه فقال له إن يك ما تقوله حقا فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن، وإنه سيملك موضع قدميّ ولو خلصت إليه لغسلت قدميه[٥].

---

(١) تفسير المنار: ٩/ ٢٥٣.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: ٧/٤٣٨٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه (ﷺ): ٤/١٨٢٨(٢٣٥٤).

(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق: ٣/ ٦٦ (٢١٢٥).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣).

إن الدارس للنصوص التاريخية التي تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثنائها يلاحظ ملاحظة هامة هي: أن الناس الذين كانت لهم صلة بكتاب سماوي كان واضحا في أذهانهم أنه سيبعث نبي، وكانوا يرتقبون ظهوره وإن بعضا من علمائهم قد أعلن إسلامه مجرد اجتماعه بالنبي (ﷺ).

ومن ذلك قصة سلمان الفارسي كما تذكرها روايات كثيرة، وتنقله من عالم إلى عالم في النصرانية حتى دله آخرهم أن يترقب نبيا كاد أن يبعث من أرض العرب، وذلك سبب مجيئه إلى أرض العرب وسكناه فيها.

وقصة إسلام عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهم من علماء اليهود والأسقف الرومي الذي أسلم على يد دحية الكلبي وقت الرسالة فقتلوه، والجارود، والمقوقس صاحب مصر، والنجاشي وموقفه من الصحابة في هجرتهم إليه وقولهم بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لإخراجهم.

وورود نصارى نجران على النبي (ﷺ)، وكيف حاجهم في شأن عيسى (عليه السلام) وحجهم، فدعاهم إلى المباهلة بأمره تعالى، فنكصوا على أعقابهم، خوفا من شؤم مغبتها، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وهكذا دواليك[1].

بقي أن أذكر ما أورده العلماء من نصوص التوراة والإنجيل، إذ ليس مما يعقل أن يكون ما تقوله الآية جزافا لا يستند إلى حقيقة ما أو أساس ما فيما كان متداولا في أيدي اليهود والنصارى من أسفار في عهد النبي (ﷺ)، فلا يستطيع أحد أن ينفي ذلك أو يجزم بأن ما كان في أيديهم في عهد النبي (ﷺ) هو نفسه الذي يتداولونه اليوم بدون نقص أو زيادة في النصوص وأسماء الأسفار، لأنها كتبت بعد موسى وعيسى عليهما السلام بأقلام بشرية شابها كثير من المبالغة والمناقضة والإغراب، وفي القرآن دلائل تفيد أنه كان في أيدي اليهود والنصارى في زمن النبي (ﷺ) توراة وإنجيل يصح عليهما وصف القرآن على ما سوف نورده في التعليق الآتي، وفي أسفار العدد والخروج والتثنية والملوك وعزرا من أسفار العهد القديم ما يفيد أن كتابا باسم التوراة كتبه موسى بيده وفيه ما تلقاه عن الله من وصايا وتعاليم وشرائع، والمتبادر من العبارة القرآنية أن هذا هو الذي كان فيه صفة النبي (ﷺ) وهو مفقود.

وهناك إنجيل معروف باسم (إنجيل برنابا) أحد الرسل الذين حملوا راية التبشير عقب وفاة عيسى (عليه السلام) فيه نصوص متفقة مع نصوص القرآن عنه (عليه السلام) وولادته وحياته ورسالة النبي محمد

(١) ينظر: إظهار الحق: ٤/ ١٢٠٩- ١٢١٢.

(ﷺ) وصفاته ومهما تكن المآخذ التي يوجهها رجال الدين النصارى إلى هذا الإنجيل فإن نصوص القرآن الذي لا يشك أحد في أنه يرجع تاريخيا إلى أربعة عشر قرنا دليل قاطع على أن ما كان متداولا في أيدي اليهود والنصارى من أسفار إشارات إلى صفة النبي (ﷺ) ورسالته[١].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء]، أي: إن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك.

ثم أليس يكفيهم أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟

والمراد: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد (ﷺ) ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم.

فحقيقة نبوته (ﷺ) هي للعالمين جميعا، لذا يترتب عليها معان كثيرة من وحدة الإنسانية وتوحيد دينها التي تحتاج إلى مقدمات ومبشرات توجد استعدادا عاما عند الناس لها[٢].

ومما جاء في الباب السابع عشر من التوراة في سفر التكوين ما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق في أيديهم إلى الآن ((أن الملك قد نزل على إبراهيم، فقال له: في هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: يا رب ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك، قد استجيب لك في إسماعيل، وأنا أباركه، وأنميه، وأكثره، وأعظمه بما ذماذ)) وتفسيره: محمد (ﷺ) [٣].

وجاء في الباب الثالث والثلاثين في التوراة من سفر تثنية الاشتراع: ((جاء الرب من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلى من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار، في يمينه قبس من نار)).

ومعنى مجيئه من سينا: إعطاؤه التوراة لموسى (عليه السلام)، وإشراقه من ساعير: إعطاؤه الإنجيل لعيسى (عليه السلام)، واستعلاؤه من جبال فاران: إنزاله القرآن لأن فاران من جبال مكة[٤].

وإذا كانت هذه الإشارات الواضحة في التوراة، ففي الإنجيل مثلها، بل ما هو أكثر وضوحا منها، ومن ذلك أن المسيح قال للحواريين: إني ذاهب عنكم وسيأتيكم الفارقليط الذي لا يتكلم من قبل

---

(١) ينظر: التفسير الحديث: ٤٦٣/٢.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٦٣.

(٣) ينظر: التسهيل: ٣٠٧، ونظم الدرر: ١٢٦/٣، وفتحُ البيان: ٣٥/٥.

(٤) ينظر: خاتم النبيين: ٢٤٤/١، والتفسير المنير: ١٢٠/٩.

نفسه، إنما يقول كما يقال له إنه نذيركم يجمع بين الحق ويخبركم بالأمور المزمعة ويمدحني ويشهد لي.

وتفسير الفارقليط: أنه مشتق من الحمد واسم نبينا محمد (ﷺ) محمد وأحمد وقيل معنى الفارقليط الشافع المشفع[١].

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين أن يبلغوا أقوامهم بمجيئه (ﷺ)، وأن يؤمن الأقوام الذين يشهدون ويعاصرون رسالته، فكل رسول سبقه أمره الله أن يبلغ متبعيه إتباعه والإيمان به دون تمسك بسلطة زمنية قد تنزع منهم، فما دام قد جاء ومعه معجزة وبينة فلا بد أن يؤمنوا به[٢].

المطلب الثالث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والالتزام بالحلال والطبائع السليمة

تمثلت هذه الصفات الخمس الأخرى الباقية في قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

وأولى تلك الصفات هما قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص الرسالة المحمدية، وأهدافها البارزة وعلى احتمال القول انه استئناف لبيان أنها من آثار رحمته الواسعة المتمثلة به (ﷺ) من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث وإسقاط التكاليف الشاقة أو ان الكلام متصل بتعداد أوصافه الطاهرة عليه الصلاة والسلام الموجودة عندهم في التوراة والإنجيل[٣].

وإمكان الجمع وارد إذ إنها صفات معروفة عندهم وأنها من مفاخره عليه الصلاة والسلام التي نال بها اللقب الأسمى في موضعين: أولهما: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم]، وثانيهما: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

---

(١) ينظر: النكت والعيون: ٢٦٨/٢، ومفاتيح الغيب: ٥٢٩/٢٩، والتسهيل: ٣٠٥، والبحر المحيط: ٤٠٢/٤، وتفسير المراغي: ٨١/٩.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: ٤٣٨١/٧.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٤٦٣/٢، والبحر المحيط: ٤٠٢/٤، وإرشاد العقل السليم: ٢٧٩/٣، وفتح القدير: ٢٨٧/٢.

ومن ذلك فقد وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل ما تدعوا إليه الطبائع المستقيمة والفطر السليمة؛ لأن فيه النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، وأنه يزجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة القويمة، والخلقة السوية(١).

قال ابن عباس وعطاء: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام.

والمنكر: عبادة الأوثان، وقطع الأرحام.

وقال مقاتل: المعروف: الإيمان، والمنكر: الشرك.

وقال غيره: المعروف: الحق، لأن العقول تعرف صحته، والمنكر: الباطل، لأن العقول تنكر صحته(٢).

قال الطبري: «يأمر هذا النبيُّ الأميُّ أتباعَه بالمعروف: وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، وينهاهم عن المنكر: وهو الشرك بالله، والانتهاء عمّا نهاهم الله عنه»(٣).

يفهم مما سبق أن الأمر بالمعروف: هو الذي يتناول الإيمان بالله ووحدانيته ويتناول الشرائع ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع. والنهي عن المنكر: هو الذي يتناول الكفر والشرك والمعاصي ومساوئ الأخلاق، لأن العقل والشرع ينكراه(٤).

ويشهد له سؤال الأعرابي وقد أسلم: بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته ينهي عنه. ولا نهى عن شيء، فقال: ليته أمر به(٥).

ونلحظ تقديم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على تشريع الحلال والحرام، مما يفيد أنه الأصل في دعوات الرسل؛ لأنه يتضمن إصلاح العقائد، وتوحيد المولى سبحانه، وترسيخ الإيمان بالبعث والجزاء، وهو ما كان من حال النبي (ﷺ) أول أمره في العهد المكي مما يدل دلالة واضحة على ضرورة الدعوة وشدة حاجة الإنسانية إليها.

---

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: ٤٣٨١/٧.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ٢٨٩/٣، وزاد المسير: ١٦٠/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٩/٧، والبحر المحيط: ٤٠٢/٤.

(٣) جامع البيان: ١٦٥/١٣.

(٤) ينظر: محاسن التأويل: ١٩٤/٥، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ٣٩٣/٥.

(٥) ينظر: تفسير ابن القيم: ٢٨٨/١.

«وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود (ﷺ): إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ..... ﴿١٠٤﴾ ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ..... ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل]»[١].

ولمكانتهما أوضح ابن العربي أنهما أصل في الدين وعمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين، والمقصود الأكبر من فائدة بعث النبيين، فهما أحد مقاصدهم، وبهما يصلح للناس دينهم ودنياهم[٢].

وأما الصفتان الأخريتان فهما من قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ إذ أوضح النص القرآني بصريح القول أن الحلال كان طيبا قبل حله وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه. ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس التحليل والتحريم لوجهين اثنين:

أحدهما: أن هذا علم من أعلام نبوته التي احتج الله بها على أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ.....﴾ فلو كان الطيب والخبيث قد استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وهذا أيضا باطل، فإنه لا فائدة فيه لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا لدليل منفصل.

وكذا الخبيث فكل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سببا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل منفصل[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٨٧.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ٦٣.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٨١/١٥، وتفسير ابن القيم: ٢٨٩/١

ومقتضاه أن الطيبات: ما يستطيبه الطبع ويستلذه، والخبائث: ما يستخبثه الطبع ويتنفر منه فتكون الآية دليلا على أن الأصل في كل ما يستطيبه الطبع الحل، وكل ما يستخبثه الطبع الحرمة إلا لدليل منفصل(١).

قال ابن عاشور: «ولما كان الإسلام دينَ الفطرة ولا اعتداد بالعوائد فيه، ناط حال المأكولات بالطّيب وحرمتها بالخُبث، فالطّيب ما لا ضُر فيه ولا وخامَة ولا قذارة، والخبيثُ ما أضر، أوْ كان وَخيم العاقبة، أو كان مستقذراً لا يقبله العقلاء كالنجاسة، وهذا ملاك المُباح والمحرم من المآكل، فلا تدخل العادات إلاّ في اختيار أهلها ما شاءوا من المباح، فقد كانت قريش لا تأكل الضب، وقد وُضع على مَائدة رسول الله فكره أن يأكل منه، وقال: ما هو بحرام ولكنه لم يكن من طعام قومي فأجدني أعافُه»(٢).

ولاشك أن هناك أقوالا أخرى للمفسرين وهو ما أشار إليه القاسمي «فالطيبات أعم من الطيبات في المأكل»(٣).

ومنه ذكروا أن الطيبات ما يكون في الطعام الذي حرم على بني إسرائيل بسبب ذنوبهم عقوبة لهم من لحوم الإبل وشحوم الغنم والمعز والبقر، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴿١٦١﴾﴾ [النساء]، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام]، وقيل ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي.

وأيضا فهناك ما كان خاصا في حكم الشريعة كالبيع، وما خلا كسبه عن سحت وحصل عليه بطريق طيب أحله الله تعالى لا اعتداء فيه ولا اغتصاب.

---

(١) ينظر: روح البيان: ٢٥٢/٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣٥/٩.

(٣) محاسن التأويل: ٢٠٥/٥.

وكذا الخبائث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، أو ما خبث في الحكم من الأموال التي تؤخذ بغير الحق كالربا والرشوة والغلو والسرقة والخيانة والغصب والسحت وغيرهما من المكاسب الخبيثة(١).

وأما آخر تلك الصفات فهي قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، والمتتبع يجد أن العالم قديما كان معزولا عن بعضه، وكل بيئة لها أجواؤها وداءاتها؛ فيأتي الرسول ليعالج في مكان خاص داءات خاصة اما وقد بعث المصطفى (ﷺ) وتوحدت هذه الداءات في الدنيا؛ جاء ليعالج هذه الداءات العالمية، مؤيدا من الله بأوصافه وبتعاليمه التي تخفف عنهم الإصر والأغلال(٢).

وثمة اختلاف في معنى الإصر والأغلال، فما ورد في معنى الإصر معنيان:

الأول: انه كل ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل، وهو المتمثل بالعهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة، وهو مثلٌ لثقل تكليفهم وصعوبته، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، ودليله قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ .....﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]، وهو ما قاله ابن عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد.

الثاني: التشديد الذي كان على بني إسرائيل في دينهم، من تحريم السبت، والشحوم والعروق، وغير ذلك من الأمور الشاقة، وهو ما قاله قتادة وابن جبير.

وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب، فيصبح وقد كتب على باب بيته: إن كفارته أن تنزع عينيك، فينزعهما(٣).

قال القرطبي: «جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال؛ فوضع عنهم بمحمد(ﷺ) ذلك العهد وثقل تلك الأعمال؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه.

---

(١) ينظر: الكشاف ١٥٦/٢، ومدارك التنزيل: ١/ ٦١٠، وفتحُ البيان: ٣٥/٥، وزهرة التفاسير: ٢٩٧٢/٦.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: ٤٣٨٥/٧.

(٣) ينظر: جامع البيان: ١٦٧/١٣، والنكت والعيون: ٢٦٩/٢، ومعالم التنزيل: ٢٩٠/٣، والمحرر الوجيز: ٤٦٣/٢، وزاد المسير: ١٦١/٢.

وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره»[١].

وبالجملة فالمعنى إزالة الاثقال عنهم الذي يترهبون ويتزهدون به فوق طاقتهم من الأعمال التي كانت عليهم مفروضةً، المذكورة سابقا فنسخها حُكْم القرآن[٢].

وأما ما ورد في معنى الأغلال: فهي جمع غل وهو الحديدة التي تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة[٣]. وفي معناه قولان:

الأول: عبارة مستعارة لتلك الأثقال كقتل الأنفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت، وعدم جواز صلاتهم إلا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد.

وشبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق والتي لا تمتدّ مع وجود الغل؛ كذلك لا تمتدّ إلى الحرام الذي نهيت عنه، وكانت هذه الأثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد (ﷺ) نسخ ذلك كله، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين[٤].

الثاني: ان المراد هنا قول الله عز وجل في اليهود: ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ..... ٦٤﴾ [المائدة]، فمن آمن بنبينا محمد (ﷺ)، زالت عنه الدعوة، وتغليلها، وهو ما قاله ابن زيد[٥].

لكن ابن عاشور أشار إلى مسألة مهمة تكون الأولى بالصواب فثمة مشابهة في المعنى بين الإصر والأغلال، فالمتفحص دقة اللفظ القرآني لا يمكن إتيان لفظين متكررين دون أن ينفرد احدهما بالمعنى عن الآخر وهو ما أوضحه في تعريجه عن المعنى ذاته بأن «وضع الأغلال استعارة لما يعانيه اليهود من المذلة بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس، وزوال ملك يهوذا،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٠/٧.

(٢) ينظر: جامع البيان: ١٦٨/١٣، والفواتح الإلهية: ٢٧٠/١.

(٣) ينظر: الوسيط: ٤١٧/٢، ومعالم التنزيل: ٢٩٠/٣، وتفسير القرآن للسمعاني: ٢٢٢.

(٤) ينظر: بحر العلوم: ٥٧٠/١، والكشاف: ١٥٧/٢، والمحرر الوجيز: ٤٦٤/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٣٠١/٧، والسراج المنير: ٥٢٤/١.

(٥) ينظر: جامع البيان: ١٦٨/١٣، والمحرر الوجيز: ٤٦٤/٢، والبحر المحيط: ٤٠٣/٤، والجواهر الحسان: ٨٥/٣.

فإن الإسلام جاء بتسوية أتباعه في حقوقهم في الجامعة الإسلامية، فلا يبقى فيه مَيزٌ بين أصيل ودخيل، وصميم ولصيق، كما كان الأمر في الجاهلية، ومناسبة استعارة الأغلال للذلة أوضح، لأن الأغلال من شعار الإذلال في الأسر والقود ونحوهما.

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود، المتحدث عنهم في خطاب الله تعالى لموسى، ولا يتحققان في غيرهم ممن آمن بمحمد (ﷺ)؛ لأن اليهود قد كان لهم شرع، وكان فيه تكاليف شاقة، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم، ولذلك أضاف الله الإصر إلى ضميرهم، ووَصف الأغلال بما فيه ضميرهم، على أنك إذا تأملت في حال الأمم كلها قبل الإسلام لا تجد شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم، مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية، ومثل تكاليف شاقة عند النصارى والمجوس لا تتلاقى مع السماحة الفطرية، وكذلك لا تجدها خالية من رهق الجبابرة، وإذلال الرؤساء، وشدة الأقوياء على الضعفاء، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات، والتكايُل في الدماء، وأكلهم أموالهم بالباطل، فأرسل الله محمداً (ﷺ) بدين من شأنه أن يخلص البشر من تلك الشدائِد، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، ولذلك فسرنا الوضع بما يَعم النسخ وغيره، وفسرنا الأغلال بما يخالف المراد من الإصر»[(١)].

قال ابن كثير: «كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله (ﷺ) {إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل}[(٢)].

وفي حديث آخر قال: {إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه}[(٣)] ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة]. وثبت أن الله تعالى جل في علاه قال بعد كل سؤال من هذه: {قد فعلت قد فعلت}[(٤)]»[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣٧/٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر: ١١٦/١(١٢٧).

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي: ٦٥٩/١ (٢٠٤٥) وقال الألباني: صحيح.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه}: ١١٦/١(١٢٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٨٩.

يتضح مما سبق أن بني إسرائيل أخذوا بالشدة في الأحكام فكان مثلهم مثل من يحمل أثقالا يئط منها وهو موثق بالسلاسل في عنقه ويديه ورجليه، وقد خفف المسيح (عليه السلام) عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية، وشدد في الأحكام الروحية إلى أن جاءت الشريعة الوسطى السمحة التي بعث بها خاتم الرسل محمد صلوات الله عليه.

فالحياة الإنسانية الكريمة لا تكون إلا بعمل المعروف الطيب وهجر المنكر الخبيث ولا يكون الإنسان إنسانا إذا لم يتحرر من أغلال الشرك وهوى النفس وانطماس البصيرة، فالإسلام دعوة تحرير للروح من أسر المادة، وتحرير للعقل من قيد الجهل والخرافة وتحرير للفكر من التقليد والتبعية.

ثم انه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الصفات التسع بين كيفية إتباعه عليه الصلاة والسلام وعلو مرتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة في الدارين إثر بيان نعوته الجليلة، فكان من الواجب في الخطاب على بني إسرائيل وغيرهم أن يتبعوا مَن هذه صفاته، والذي في إتباعه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، ولهذا ختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبيه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾[١].

قال ابن عاشور: «الفاء في قوله: **(فالذين آمنوا به)** فاء الفصيحة، والمعنى: إذا كان هذا النبي كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوءته، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم، علمتم أن الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا هديه، هم المفلحون»[٢].

ولنتابع ما جاء في معنى النص من بيان منازل تحقق الفلاح:

أولاً: قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بمحمد (ﷺ) واتبعوه فيما جاء به من الشرائع[٣].

قال الطبري: «صدَّقوا بالنبي الأمي، وأقرُّوا بنبوّته»[٤].

والكلام فيه عموم لقوم موسى (عليه السلام) ولغيرهم من الأمة، إذ إنه لم يقل: فالذين آمنوا به منهم؛ بل أطلق فدل على العموم[٥]، لا كما قال بعض المفسرين انه خاص باليهود[٦].

---

(١) ينظر: تفسير المراغي: ٨٣/٩، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ٣٩٤/٥.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣٨/٩.

(٣) ينظر: فتح القدير: ٢٨٩/٢، وفتحُ البيان: ٣٦/٥.

(٤) جامع البيان: ١٦٨/١٣.

(٥) ينظر: معالم التنزيل: ٢٩٠/٣، وإرشاد العقل السليم: ٢٨٠/٣، وتفسير المنار: ١٩٨/٩.

(٦) ينظر: الوسيط للواحدي: ٤١٧/٢، ومفاتيح الغيب: ٣٨٢/١٥، واللباب: ٣٤٥/٩.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾

قال الزمخشري: «أصل العزر: المنع، ومنه التعزير للضرب دون الحد، لأنه منع عن معاودة القبيح»(١)، فالتعزير يطلق في اللغة على الرد والضرب والمنع والتأديب والتعظيم(٢)، وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: «عزروه: عظموه ووقروه»(٣).

لكن ورد في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح]، والأقرب إلى فقه اللغة ما حققه الزمخشري ان معناه: ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو(٤).

ولو كان التعزير هو التوقير لكان الأجود في اللغة الاستغناء به، والنصرة إذا وجبت فالتعظيم داخل فيها؛ لأن نصرة الأنبياء هي المدافعة عنهم أو الذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيرهم.

وعليه فمعناه: المنع والحماية من كل من يعاديه مع التعظيم والإجلال، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ونصروه باللسان والسنان(٥).

قال البقاعي: «منعوه من كل من يردهُ بسوء، وقووا يده تقوية عظيمة على كل من يكيده»(٦).

وقال ابن عاشور: «أيدوه وقّووْه، وذلك بإظهار ما تضمنته كتبهم من البشارة بصفاته، وصفات شريعته، وإعلان ذلك بين الناس، وذلك شيء زائِد على الإيمان به، كما فعل عبد الله بن سَلاَم، وكقول ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وهو أيضاً مغاير للنصر، لأن النصر هو الإعانة في الحرب بالسلاح، ومن أجل ذلك عطف عليه **(ونصروه)**»(٧).

قال الطبري: «أعانوه على أعداء الله وأعدائه، بجهادهم ونصب الحرب لهم»(٨).

---

(١) الكشاف: ١٥٧/٢.
(٢) ينظر: تفسير المنار: ١٩٨/٩.
(٣) جامع البيان: ١٦٩/١٣.
(٤) ينظر: الكشاف ١٥٧/٢، وتفسير المنار: ١٩٨/٩.
(٥) ينظر: تفسير المنار: ١٩٨/٩، وتفسير المراغي: ٨٣/٩.
(٦) نظم الدرر: ١٣٠/٣.
(٧) التحرير والتنوير: ١٣٨/٩.
(٨) جامع البيان: ١٦٩/١٣.

والمقصود النصر بكل وسائل النصر، وهو ما يدلنا على السمت الذي ينبغي أن نحرص عليه ولا يكمن إلا بمن قاموا بتلك السمات السابقة بالذكر، لننطلق إلى هذه الشعيرة بتحقيق انتسابنا إليه ومتابعتنا له بالأقوال والأحوال والأخلاق(١).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾

ورد في معنى النور ثلاثة أقوال:

١. القرآن. وسمي نوراً لاستنارة قلب المؤمن به بالإيمان والعلوم والعرفان فيخرج من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم.

٢. الهدى والبيان والرسالة.

٣. الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور(٢).

وأثار الزمخشري سؤالا عن كيفية إمكان حمل النور هنا على القرآن والقرآن ما أنزل مع محمد (ﷺ) وإنما أنزل مع جبريل (عليه السلام)؟

أجيب عنه بأنّ معناه: أنه أنزل مع نبوّته لأنّ نبوّته ظهرت مع ظهور القرآن.

أو اتبعوا القرآن المنزل إليه مع إتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهى عنه.

أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في إتباعه(٣).

وعليه فتشبيه حال المقتدي بهدي القرآن بحال الساري في الليل إذا رأى نوراً يلوح له اتّبعه، لعلمه بأنه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير، وأجزاءُ هذا التمثيل استعارات، فالإتباع يصلح مستعاراً للاقتداء، وهو مجاز شائِع فيه، وهو الخلاصة الإلهية للرسالة الإلهية، وسجل النبوات جميعا، فيه أحكامها، وأخبارها، ومعجزاتها(٤).

ولما تم ما نظمه الله تعالى من جواهر أوصاف هذا النبيّ الكريم حثاً على الإيمان وإيجاباً له على وجه يعلم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف تقدّم زمانه أو تأخر جاء الكلام بالإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٥).

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ٣٩٥/٥.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٨٢/١٥، واللباب: ٣٤٥/٩، والسراج المنير: ٥٢٤/١

(٣) ينظر: الكشاف ١٥٧/٢.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣٨/٩، وزهرة التفاسير: ٢٩٧٤/٦.

(٥) ينظر: السراج المنير: ٥٢٥/١.

قال الطبري: «الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها جل ثناؤه أتباع محمد ﷺ، هم المنجحون المدرِكون ما طلبُوا ورجَوْا بفعلهم ذلك»(١).

فهم السعداء المقبولون عند الله الموفقون من عنده بإتباعه المقصورون من عنده على الفلاح والفوز بالنجاح(٢).

والإشارة إلى الصفات، يفيد أنها علة الحكم وسببه،، لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم.

وقد أشار سبحانه وتعالى بالبعيد للدلالة على بعد الشرف، وعلو المنزلة، وقد قصر الله تعالى الفلاح عليهم، بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل، أي أنهم المفلحون، ولا يفلح سواهم، والقصر قصر حقيقي، إذ إنهم سلكوا الصراط المستقيم، ومن لم يسلك سبيل الله فقد سلك مثارات الشيطان، وهذا فرق ما بين الهدى والضلال.

وإذا كان ذلك طريق الفوز عند الله، وفي الحياة الدنيا والآخرة فإن الإنسانية كلها مخاطبة بها، ولذا قال تعالى آمرا نبيه بخطاب الناس كافة بهذه الشريعة السمحة البيضاء(٣). «وفي هذه الآية تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي (ﷺ)، ويُلحق بهم من نصر دينه بعدهم»(٤).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبي (ﷺ) بأحسن الصفات وأكرم المناقب، وأقامت الحجة على أهل الكتاب بما يجدونه في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنه ما جاء إلا لهدايتهم وسعادتهم، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه، كانوا من(٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر].

وعودة لذي بدء ببيان الصلة بذي قبل، فلا يفوتني أن اذكر أن هذه الآية تقرر بصراحة صريحة أن رسالة الإسلام رسالة عامة شاملة، وأن اليهود والنصارى لن تكتب لهم رحمة الله، ولن

(١) جامع البيان: ١٦٩/١٣.
(٢) ينظر: الفواتح الإلهية: ٢٧٠/١.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٨٠/٣، زهرة التفاسير: ٢٩٧٤/٦.
(٤) التحرير والتنوير: ١٣٩/٩.
(٥) ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ٣٩٥/٥

يكونوا من المؤمنين، إلا إذا تابعوا النبي الأمي، واستجابوا لدعوته، ودخلوا في دين الله، وهو الإسلام(١).

قال البقاعي: «ولما كان اليهود ربما ادعوا ذلك مكابرة واضح غاية الإيضاح بقوله: **(الذين يتبعون)** أي بغاية جهدهم **(الرسول)** ولما كان هذا الوصف وحده غير مبين للمراد ولا صريح في الرسالة عن الله ولا في كونه من البشر، قال: **(النبي)** أي الذي يأتيه الوحي من الله فبدأ بالأشراف وثنى بما خصه برسالة الله وكونه من الآدميين لا من الملائكة.

ولما لم يتم المراد، قال مبينا لأعظم المعجزات، وهي أن علمه بغير معلم من البشر: **(الأمي)** أي الذي هو مع ذلك العلم المحيط على صفة الأم، وأمة العرب لا يكتب ولا يقرأ ولا يخالط العلماء العلماء للتعليم منهم بل لتعليمهم، فانطبق الوصف على الموصوف مع التنويه بجلالة الأوصاف والتشويق إلى الموصوف، ولم يعطف لئلا يوهم تعداد الموصوف»(٢).

ويمكن إقرار الصلة من وجهين:

أولهما: ما نص عليه القرآن في هذه الآية، وما أسمعه الله تعالى موسى (عليه السلام)، وهو يطلب إلى الله أن يكتب له ولقومه في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ١٥٦﴾[الأعراف]، فإن الله سبحانه وتعالى ما استجاب هذه الدعوة على إطلاقها، بل إستجابها للمتقين الذين يؤمنون بآيات الله التي نزلت على موسى(عليه السلام)، وعلى من جاء إلى بني إسرائيل بعده من أنبياء، وخاصة عيسى (عليه السلام)، حتى إذا جاء النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه لم يكتب لأتباع التوراة والإنجيل حسنة في الدنيا ولا في الآخرة حتى يؤمنوا به، وهذا هو بعض السر في وصل قوله تعالى: ﴿ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بقوله سبحانه بعد هذا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ..... ﴾ [الأعراف]، فالذين يتبعون الرسول النبي الأمي، بدل منها، ومعنى هذا أن حكم كتابة الحسنة مشروط بشرطين:

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٩٥/٥.

(٢) نظم الدرر: ١٢٤/٣.

أحدهما يتحقق في عهد موسى (عليه السلام)، ومن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل، إلى عيسى (عليه السلام). والشرط هو تقوى الله وتزكية النفس والإيمان بآياته التي يحملها رسله، وهذا الشرط وحده يكفى لتقرير الحكم إلى أن يبعث النبي الأمي، فإذا بعث أضيف إلى هذا الشرط الشرط الآخر، وهو الإيمان به، والذي لا يتحقق الشرط الأول، من تقوى وتزكية وإيمان بآيات الله إلا بالإيمان به، وبالكتاب الذي معه.

ثانيهما: أن هذين الشرطين قد حملتهما التوراة، التي هي شريعة أتباع موسى وعيسى عليهما السلام معا، وأن الإيمان بعد ظهور محمد (ﷺ) لا يتم إلا إذا تحقق الشرطان معا، وإلا إذا آمن اليهود والنصارى بما في كتابيهما بهذا النبي، فإذا لم يؤمنوا به، فقد كفروا بالكتاب الذي في أيديهم، وبهذا لم يكونوا من المؤمنين[١].

يتضح مما سبق أن هذه الآية المكية المبكرة في النزول فيها دلالة على أن الرسالة المحمدية حملت منذ بدئها المهام العظمى التي ذكرتها وعلى أن صفات النبي (ﷺ) كانت موجودة في التوراة والإنجيل يجدها اليهود والنصارى فيهما وأن فريقا منهم اعترفوا بمطابقة صفاته على ما في أيديهم من الكتب وآمنوا به في وقت مبكر من العهد المكي وأن هذه الرسالة كانت منذ البدء رسالة عامة لجميع الناس والملل، وردا على الذين يزعمون غير ذلك استدلالا من بعض آيات وجهت للعرب خاصة، وغير مدركين ما يمكن أن يكون في ذلك من حكمة وخصوصية اقتضتها ظروف الخطاب والدعوة والأساليب وهذا التعميم قد أكدته إشارات وآيات عديدة منها ما سبق ونبهنا عليه فضلا عما في القرآن المدني من مؤيداته الكثيرة[٢].

المبحث الثاني

صفات أصحاب النبي (ﷺ)

أرسل الله تعالى رسوله بالهدى ودين الإسلام ليرفع شأنه على سائر الأديان، وأردف أصحابه بالذكر في التوراة والإنجيل من الكتب السابقة قبل أن يوجدوا وقبل أن يأتي زمانهم، فوصفهم بأوصاف كلها مدائح لهم، وذكرى لمن بعدهم، فسادوا بها الأمم وامتلكوا الدول، وقبضوا على ناصية العالم أجمع.

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٩٧/٥.

[٢] ينظر: التفسير الحديث: ٢/ ٤٦٢.

والدليل صريح في نص القرآن الذي جمع تلك الصفات المؤهلة من قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

وبدءا لا بد من حسم الاختلاف بين المفسرين بنسبة تلك الصفات في هذه الآية، إذ أنها ضمت مجموعة من الصفات، فإما كونها مشتركة بالذكر في التوراة والإنجيل معا، وإما في احدهما دون الآخر؟ والغاية فصل القول في بيانه قبل الخوض فيه ليتسنى الوصول إلى المبتغى لجعل كلٍ من الصفات في موضعه.

وإليك الآراء:

أولا: أنهما مَثلانِ، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل، وعندها يكون الوقف على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إذ يتم الكلام به، ويبتدئ بالمثل الثاني بعدها بذكر نعتهم في الإنجيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾؛ وهو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة.

فكانت هذه صفتهم في التوراة والإنجيل من قبل أن يخلق الله السموات والأرض فكان مثلهم في التوراة غير مثلهم في الإنجيل، وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين[١].

ثانيا: أنهما مَثلانِ في التوراة والإنجيل معا، وعندها فلا يوقف على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إنما يكون الوقف على ﴿ٱلْإِنجِيلِ﴾، إذ به تتمة الكلام ويبتدئ بعدها: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على أنه ابتداء لتمثيل مستأنف يختص بالقرآن، وهو ما ذكره مجاهد والفراء[٢]، وإنما أعاد ذكر المثل لزيادة تقريره، وللتنبيه على غرابته، وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة[٣].

---

[١] ينظر: جامع البيان: ٢٦٦/٢٢، والنكت والعيون: ٣٢٣/٥، ومعالم التنزيل: ٢٤٥/٤، والكشاف: ٣٤٩/٤، والمحرر الوجيز: ١٤٢/٥، وزاد المسير: ١٣٩/٤، ومفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨ ، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٤/١٦، وروح المعاني: ٢٧٨/١٣.

[٢] ينظر: جامع البيان:٢٦٧/٢٢، والنكت والعيون: ٣٢٣/٥، والمحرر الوجيز:١٤٢/٥, وزاد المسير: ١٣٩/٤، ومفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٤/١٦، والجواهر الحسان: ٢٦٥/٥.

[٣] ينظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ١١٥، وفتح القدير: ٦٦/٥، وفتحُ البيان: ١٢٠/١٣.

قال الطبري: «وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: مثلهم في التوراة، غير مثلهم في الإنجيل، وإن الخبر عن مثلهم في التوراة متناه عند قوله ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وذلك أن القول لو كان كما قال مجاهد من أن مثلهم في التوراة والإنجيل واحد، لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل، وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفا على قوله ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حتى يكون ذلك خبرا عن أن ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلام بغير واو في قوله ﴿كَزَرْعٍ﴾ دليل بين على صحة ما قلنا، وأن قولهم ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ خبر مبتدأ عن صفتهم التي هي في الإنجيل دون ما في التوراة منها»[١].

ويمكن أن نلحظ من ترجيحه أن إخبار الله قوم موسى مختلف عما اخبر به قوم عيسى عليهما السلام، والسبب اختلاف ما يتمتع كل واحد منهما، فأخبر الله قوم موسى (عليه السلام) بأنهم لا يملكون القيم المعنوية، ومغترون بالقيم المادية، لذلك ستأتي الأمة المحمدية التي تملك قيم الروح والمادة، من ركوع وسجود وغيرها. وأبلغ قوم عيسى (عليه السلام) أنه سيأتي في أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب انعزالكم عن الحياة وابتداعكم الرهبنة[٢].

ولابن عاشور تعريجه يصح الاحتجاج به لما جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من التوراة من قول موسى (عليه السلام): ((جاء الربُ من سينا وأشرقَ لهم من سَعير وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القُدُس وعن يمينه نار شريعة لهم فأحبّ الشعب جميع قديسيه وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك))

فإن جبل فاران هو حِيال الحجاز، وقوله: ((فأحب الشعب جميع قديسيه)) يشير إليه قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: قديسيه يفيد معنى ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ومعنى ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾. وقوله في التوراة ((جالسون عند قدمك)) يفيد معنى قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

وما جاء في إنجيل متى الإصحاح الثالث عشرة، الفقرة الثالثة: ((هو ذا الزَارع قد خرج ليزرع يعني عيسى (عليه السلام) وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته)) إلى أن قال ((وسقط الآخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمره بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين))، ثم

---

[١] جامع البيان:٢٢/٢٦٧.

[٢] ينظر: تفسير الشعراوي: ٩/ ٥٥١٧.

قال: ((وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثَمر فيصنع بعضٌ مائةً وبعضٌ ستين وآخر ثلاثين)). وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوبهم وبأنهم يدعون الناس إلى الدين حتى يكثر المؤمنون كما تنبت الحبة مائة سنبلة وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة[١].

وعودة لذي بدء مطلع الآي من قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إذ المطلوب أيضا أن نعي مقصد المعية المشار إليها، وما دار من كلام حول النص المبتدئ بذكره (ﷺ)؛ والذين هم معه على دينه على سبيل الخاصة أم العامة ؟ فيها قولان:

الأول: أن المراد من المعية الصحابة الكرام على وجه العموم، وهو رأي الجمهور، أو أهل الحديبية على الخصوص، وهو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما.

ودليل ما ذهبوا إليه سياق النص السابق في الحديث عنهم وما جرى من أحداث الحديبية وغيرها، ثم إن قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ بدل أو عطف بيان من الاسم الشريف.

أي: هذا الرسول الذي أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق هو محمد رسول الله (ﷺ) والذين معه وهم أصحابه وعلى رأسهم من شهد معه صلح الحديبية، وبايعه تحت الشجرة من صفاتهم أنهم أشداء على الكفار أي: غلاظ عليهم، وأنهم رحماء بينهم[٢].

الثاني: أن المراد حمله على عموم المؤمنين إلى يوم القيامة.

ودليل ما ذهبوا إليه أن قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ صفة له ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف عليه او مبتدأ ثان. وما بعدها أخبار خبر بعد خبر[٣]، وما قدم الحديث عنه بإرساله بالهدى ودين الحق، وتأخر اسمه الشريف إلا على سبيل التنويه بفضله، والتشويق إلى اسمه (ﷺ)[٤].

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠٧/٢٦ ـ ٢٠٨.

[٢] ينظر: جامع البيان:٢٦١/٢٢، والمحرر الوجيز: ١٤٠/٥، وزاد المسير: ٤/ ١٣٨، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٢/١٦، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١١٤، وروح المعاني: ٢٧٦/١٣، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٦.

[٣] ينظر: التسهيل: ٢٩٢/٢، والبحر المحيط: ١٠٠/٢، والجواهر الحسان: ٢٦١/٥، ونظم الدرر: ٧/ ٢١٥، والسراج المنير: ٤/ ٥٧، وروح البيان: ٩/ ٥٥، وفتح القدير: ٦٨/٥، وفتحُ البيان: ١١٨/١٣، وتفسير المراغي: ١١٧/٢٦، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٦.

[٤] ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٦.

قال الرازي: «وكأنه تعالى قال: والذين معه جميعهم أشداء على الكفار رحماء بينهم لأن وصف الشدة والرحمة وجد في جميعهم، أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] وأما في حق النبي (ﷺ) فكما في قوله: ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة] وقال في حقه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] وعلى هذا قوله ﴿ تَرَىٰهُمْ ﴾ لا يكون خطابا مع النبي (ﷺ) بل يكون عاما أخرج مخرج الخطاب تقديره أيها السامع كائنا من كان، كما إن الواعظ يقول انتبه قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحدا بعينه»[١].

وعليه يكون حمل المعنى على الثاني هو الأولى قال ابن كثير: «وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيما برا بالأخيار، غضوبا عبوسا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن»[٢].

كذلك فإن أهل المعية النبوية هم أهل السيماء الدالة على أثر السجود وليست المعية هنا هي المعاصرة الدنيوية، فقد عاصره كثير من الكفار والمنافقين، لكن ليس بمعنى المعية النبوية الاتباعية، وإنما تقتضي المعية معه معية أولئك الربانيين.

قال ابن مسعود (رضي الله عنه):{إن الله نظر إلى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير القلوب فاصطفاه لنفسه، فابتعثه الله برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه}[٣].

ولذا أدخل فيها إخوانه أيضا وهم كل من آمن به من أمته (عليه السلام) ولم يره وكان من الصادقين {وددت أني لقيت إخواني}، قال: فقال أصحاب النبي (ﷺ): أوليس نحن إخوانك؟ قال: {أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني}[٤].

وفي رواية مفصلة عنه (ﷺ): {وددت أنّا قد رأينا إخواننا} قالوا: أولسنا إخوانك؟ يا رسول الله قال: {أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد} فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟ يا رسول الله فقال: {أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله؟} قالوا: بلى يا رسول الله قال: {فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض ألا

---

[١] مفاتيح الغيب: ٨٨/٢٨ ـ ٨٩.

[٢] تفسير القرآن العظيم: ٣٦٠/٧.

[٣] مسند الإمام احمد: ٦/ ٨٤ (٣٦٠١)، وقال الارنؤوط: إسناده حسن ورجاله موثقون.

[٤] المصدر نفسه: ٢٠/ ٣٨ (١٢٥٧٩)، وقال الارنؤوط: حسن لغيره وله شاهد من حديث أبي هريرة، وهو صحيح.

ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا[١]}[٢].

هكذا يتبين أن الصفات المذكورة في الكتابين منها ما هو خاص بالتوراة وخاص بالإنجيل، وكذا المعية فهي سارية من جيل الصحابة الكرام ومن تبعهم بالهداية إلى يوم الدين.

وعندها سيكون الحديث عن النص القرآني على مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول
الصفات المذكورة في التوراة

امتازت تلك الصفات بصورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع مؤلفة من لقطات عدة تجمع بين حالاتها الظاهرة والمضمرة أو بين الخلق والعمل، وهي على ما يأتي

أولا: الجمع بين الشدة والرحمة:

وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ صفتان متضادتان لا يمكن جمعهما لتناقضهما في الطباع، إلا أن المدقق يعلم انه لا لون واحد للمسلم؛ إذ يراد منه كل الألوان، فلو خلق شديدا لفقدته مواطن الرحمة، ولو خلق رحيما لفقدته مواطن الشدة[٣].

قال ابن عاشور: « ـ والجمع بينهما ـ إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية»[٤].

ومنه فتصوير المثل هنا يهدف إلى مدح أصحاب رسول الله (ﷺ) ودوره في تربيتهم تربية روحية وسلوكية معا، وقد جسّدت هذه التربية النموذجية بذكر أوصافهم في التوراة دون الاعتماد على التشبيه حتى لا يوحي التشبيه بمجرد المشابهة بين طرفيه، وإنما الصورة هنا توحي بحقيقتهم، وواقعهم العملي كما هو[٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء: ٢١٨/١ (٢٤٩).

(٢) ينظر: ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله: ٣٢ـ٣٤.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي: ٦/ ٣٧٨٧.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٠٥/٢٦.

(٥) ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٦٢.

قال الطبري: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم.

قال قتادة: ألقى الله في قلوبهم الرحمة، بعضهم لبعض[١].

وعن الحسن: بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم فكيف بأبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صحافه وعانقه.

ومن حق المؤمنين أن يراعوا هذه السنة أبدا فيتشددوا على مخالفيهم ويرحموا أهل دينهم متعطفين بالبر والصلة والمعونة وكف الأذى والاحتمال منهم[٢].

قال الرازي: «وصفُ الشدة والرحمة وجد في جميعهم، أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة] وأما في حق النبي ﷺ فكما في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة] وقال في حقه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]»[٣].

أضف إلى أنه لما كان شرف القوم شرفا لرئيسهم، مدحهم بما يشمله فهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالأسد على فريسته، لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم والرحمة بينهم كالوالد مع الولد، لأن الله تعالى أمرهم باللين للمؤمنين، ولا مؤمن في زمانهم إلا من كان من أهل دينهم، فهو يحبهم ويحبونه[٤].

والصفة هذه للمؤمنين بأن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيما برا بالأخيار، غضوبا عبوسا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً..... ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة]، وقال النبي (ﷺ): {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر}[٥]، وقال: {المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا[٦]}[٧].

---

(١) جامع البيان: ٢٦١/٢٢.

(٢) ينظر: الكشاف: ٣٤٨/٤، وغرائب القرآن: ١٥٣/٦، والسراج المنير: ٤/ ٥٧، وروح المعاني: ٢٧٦/١٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٨٨/٢٨.

(٤) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٥، والسراج المنير: ٤/ ٥٧.

(٥) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: ٤/ ١٩٩٩ (٢٥٨٦).

(٦) المصدر نفسه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: ٤/ ١٩٩٩ (٢٥٨٥).

(٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٦٠/٧.

«وكانوا ـ أيضا ـ هم فئة الحق ونشر الإسلام فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبي ﷺ أقوى المؤمنين إيماناً من أجْل إشراق أنوار النبوءة على قلوبهم فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار فإن بين نفوس الفريقين تمام المضادة»[١].

وفي وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقا فيكون ذلك لهم سجية في كل حال فدفع بإرداف الوصف الثاني، ومآل ذلك أنهم مع كونهم أشداء على الأعداء رحماء على الإخوان، فكأن الرحمة في قلوبهم بعضهم الآخر لن تكون إلا بعد بغضهم للكفار، فيجب تطهير القلب أولا من حب الكفار، حتى يتمكن حبّ المؤمنين في القلب[٢].

ومن الملاحظ أن المؤمن ليس مطبوعا على الذلة أو العزة دوما، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة، فالرحمة ليست خلقا ثابتا ولا الشدة أيضا، لكن للأحداث دور بالانفعال، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم، وحين يكون في مواجهة الكفار فهو قوي وشديد والله لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد، لذلك يقول الحق: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران]، وهو سبحانه القائل: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ..... ١٢٦ ﴾ [النحل] [٣].

وهكذا ترسم تلك الصورة الوضيئة إرادة التكريم واضحة، ففي موطن الشدة على الكفار قطعوا هذه الوشائج جميعا بخلاف موطن الرحمة فهم إخوة دين، فالحمية والسماحة للعقيدة، وليس لهم في أنفسهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها وقد تجردوا من الأنانية والهوى، ومن الانفعال لغير الله[٤].

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون ممن حوله وممن يعايشهم ويتصل بهم لا من قبل نفسه، فإذا قام اجتماع أمة على أنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ تقررت العظمة النفسية للجميع على السواء؛ ومن كانوا

---

[١] التحرير والتنوير: ٢٠٤/٢٦.

[٢] ينظر: روح المعاني: ٢٧٦/١٣، ومحاسن التأويل: ٥١٠/٨.

[٣] ينظر: تفسير الشعراوي: ١٧١٦/٣.

[٤] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٣٣٢/٦.

كذلك لم يحقروا الفقير بفقره, ولم يعظموا الغني لغناه، وإنما يحقرون ويعظمون لصفات سامية أو حقيرة [١].

إن من يملك هذه الصفة المباركة مؤهل باقتدار على أن يبني ولا يهدم، ويتنازل ولا يُنازع، ويتسامح ولا ينتقم، ولم يتمكن المسلمون من القضاء على أعدائهم إلا بها، كما حصل للمسلمين من انتصارات في مواقع عدة.

ويا للأسف أضحت هذه الصفة اليوم في عداد المفقودات في هذا الزمن حتى أنك ترى المسلمين خاضعين ذليلين لأعدائهم يسترحمونهم ويستعطفونهم بشهوة أو بشبهة، ويقلدونهم في الملبس والمأكل حتى أمسوا قدوة لهم، قال ابن تيمية: «قال بعض الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله»[٢].

ثانيا: امتيازهم بكثرة الصلاة وطلب الإخلاص بإجزال المثوبة:

وصفهم الله بوصف آخر بكمال الظاهر وهم مستغرقون في عبادته عز وجل، وفي أشرف أحوالها وأجل أركانها شدة الافتقار إليه ابتغاء الفضل والرضا ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...﴾، فتراهم ركعا أحيانا لله في صلاتهم سجدا أحيانا يلتمسون بهما وبالشدة على الكفار ورحمة بعضهم بعضا، فضلا من الله، ورحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم، فيدخلهم جنته[٣].

قال ابن كثير: «وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ... ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]»[٤].

---

(١) ينظر: وحي القلم: ٨٩/٢.

(٢) الفتاوى الكبرى: ١/ ٢٩٣.

(٣) ينظر: جامع البيان:٢٦١/٢٢، زاد المسير: ١٣٨/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٣/١٦، وأنوار التنزيل: ١٣٢/٥، والبحر المحيط: ١٠٠/٢، وتيسير الكريم الرحمن: ٧٩٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣٦١/٧.

وعلى هذا فقوله: ﴿ تَرَىٰهُمْ ﴾ لا يكون خطابا للذين يكونون مع النبي عليه الصلاة والسلام بل هو عام خرج مخرج الخطاب لغير معين تتأتى رؤيته إياهم كائنا من كان[١].

«فإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك، أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً سجداً، وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها»[٢].

قال الرازي: «تميز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم، وركوع المرائي وسجوده، فإنه لا يبتغي به ذلك»[٣].

لذلك لما كانت الصلاة مما يدخله الرياء، بَيَّن إخلاصهم من جميع أحوالهم بغاية جهدهم تغليبا لعقولهم على شهواتهم وحظوظهم، زيادة في الخير منه تعالى، للإحاطة بصفات الكمال والجمال الذي أعطاهم ملكة الغلظة على الكفار بما وهبهم من جلاله والرقة على أوليائه بما أعطاهم من رحمته التي هيئهم بها للإحسان إلى عياله فنزعوا الهوى من صدورهم فصاروا يرونه وحده سيدهم المحسن إليهم لا يرون سيدا غيره، ولا محسن سواه[٤].

وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى ذكر ابتغاء الفضل ولم يذكر الأجر لأنه إن ذكره كان منه تفضلا، إشارة إلى أن العمل جاء على ما طلب منهم، لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك، والمؤمن إذا قال أنا أبتغي فضلك يكون منه اعترافا بالتقصير فقال: يبتغون فضلا من الله ولم يقل أجرا[٥].

كما أنه تعالى لم يقل: لهم ما يطلبونه من الفضل؛ لأن المؤمن عند العمل لا يلتفت لعمله ولم يجعل له أجرا يعتد به فقال: لا أبتغي إلا فضلك فإن عملي نذر لا يكون له أجر والله تعالى آتاه من طلب الفضل، إشارة إلى قبوله عمله ووقوعه الموقع[٦].

---

(١) ينظر: اللباب: ٥١٣/١٧، وروح المعاني: ٢٧٧/١٣، والتحرير والتنوير: ٢٠٥/٢٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٠٥/٢٦.

(٣) مفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨.

(٤) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٥.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨.

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب: ٩٠/٢٨، واللباب: ٥١٨/١٧.

لقد جعل الله الصلاة آية المسلم، والعلامة الجميلة التي تميزه في مسيرة التاريخ النبوي، قبل القرآن وبعده، فهي الفصل الذي لا يعرف إلا به، والنور الذي لا يمشي إلا به، وإنما اكتسبوا صفتيهم الأوليين: الجهادية ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾، والخُلُقية: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ من كونهم رهباناً بالليل؛ أي قوله: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾؛ لأن ذلك هو المعين الصافي الذي يتزود منه المسلم الصادق المجاهد الداعية إلى الله؛ بصدق التوجه والسير؛ إذ إن قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ فيه إشارة إلى أن ذلك هو دأبهم وحالهم المستمر في حركتهم التعبدية؛ إذ التعبير باسم الفاعل ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ يوحي بصورة حية لقافلة المؤمنين وهم منخرطون في حركة الصلاة المتواترة، من غير فتور أو انقطاع، سيراً مستمراً حتى كان ذلك صفة ثابتة لهم، حيثما تراهم.

ولذلك كان تشبيه النبي (ﷺ) للصلاة في حياة المسلم التعبدية بالنهر الجاري بقوله: {أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من دَرَنِه شيء؟} قالوا: لا يبقى من دَرَنِه شيء. قال: {فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا[١]}[٢].

وهكذا فالتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا، وبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها من طلب للفضل والرضا.

فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به[٣].

ثالثا: أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم وسمتهم:

وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾، والسيماء: العلامة، وهي من الوسم الذي يميز إبل القبيلة عن إبل قبيلة أخرى، وكذا الاسم للإنسان وللبلد وللكتاب ولغيره علامة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الصلوات الخمس: ١/ ٤٦٢ (٦٦٧).

(٢) ينظر: قواعد في منهج الدعوة إلى الخير: ٢٦/١٧٤.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٣٣٢.

تميزه عن غيره[١]، وأثر الشيء حصول ما يدل على وجوده، أي من التأثير الذي تؤثره كثرة السجود[٢].

وقد ذهب المفسرون في معنى السيماء إلى قولين:

الأول: أن المراد علامتهم في وجوههم وهم في الدنيا، لكن ثمة اختلاف في تعيين هذه السيما:

١) أنه السمت الحسن والخشوع، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، والمعنى أن السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذي يعرفون به، وهي حالة مكثري الصلاة لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر.

قال منصور: قلت لمجاهد: أهذا الذي يكون بين عيني الرجل مثل ركبة البعير؟ قال: إن ذلك قد يكون للرجل، وهو أقسى قلبا من فرعون، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع.

٢) استنارة وجوههم من كثرة صلاتهم، وهو قول عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس.

قال سفيان الثوري: يصلون بالليل، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم.

وقال عطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل لأنّ من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[٣].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان (رضي الله عنه): ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، والمراد أن أثر العبادة والصلاح والإخلاص مع الله تعالى يظهر على وجه المؤمن، لذا قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): من أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته[٤].

قال الرازي: «إن ما يظهره الله تعالى في وجوه الساجدين ليلا من الحسن نهارا، محقق لمن يعقل فإن رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة

---

[١] ينظر: لسان العرب: ٦٣٥/١٢.

[٢] ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٦٢.

[٣] ينظر: جامع البيان:٢٦٤/٢٢-٢٦٥، وبحر العلوم: ٣٢١/٣، ومعالم التنزيل: ٢٤٥/٤، والكشاف: ٣٤٨/٤، وزاد المسير: ١٣٩/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٣/١٦ــ ٢٩٤، وتفسير القرآن العظيم: ٣٦٢/٧، واللباب: ٥١٤/١٧، والجواهر الحسان: ٢٦٣/٥، والسراج المنير: ٤/ ٥٨، وروح المعاني: ٢٧٨/١٣.

[٤] ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٦١/٧، ومحاسن التأويل: ٥١١/٨، والتفسير المنير: ٢٠٧/٢٦.

واستفادة العلم فكل أحد في اليوم الثاني يفرق بين الساهر في الشرب واللعب، وبين الساهر في الذكر والشكر»[١].

«وذلك لأن الله تعالى يجعل لها في عين الرأي حسنا تابعا للإجلال الذي في نفسه، ومتى أجل الإنسان أمرا حسن عنده منظره»[٢].

٣) صفرة الوجه من السهر والعبادة، وهو ما يعتري وجوه المصلين، مثل الذي يظهر في الوجه من الكلف والتهيج والصفرة.

قال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفرا.

وقال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى.

٤) أن المراد ما يظهر في الجباه بسبب كثرة السجود إذ كانت جباههم متربة من كثرة السجود في التراب، وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة.

وكان كل من العليين: علي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، يقال له: ذو الثفنات؛ لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير إذا ما مس الأرض من أعضائه عند الاناخة[٣].

قال البقاعي: «ولا يظن أنّ من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود في جبهته فإنّ ذلك من سيما الخوارج»[٤].

وقال ابن عاشور: «وليس المراد أنهم يتكلفون حدوث ذلك في وجوههم ولكنه يحصل من غير قصد بسبب تكرر مباشرة الجبهة للأرض وبشرات الناس مختلفة في التأثر بذلك فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلفه ولم يقصد به رياء»[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨.

(٢) المحرر الوجيز: ١٤١/٥.

(٣) ينظر: جامع البيان:٢٦٤/٢٢ـ٢٦٥، وبحر العلوم: ٣٢١/٣، ومعالم التنزيل: ٢٤٥/٤، والكشاف: ٣٤٨/٤، وزاد المسير: ١٣٩/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٣/١٦ــ ٢٩٤، وتفسير القرآن العظيم: ٣٦٢/٧، واللباب: ٥١٤/١٧، والجواهر الحسان: ٢٦٣/٥، والسراج المنير: ٤/ ٥٨، وروح المعاني: ٢٧٨/١٣.

(٤) نظم الدرر: ٧/ ٢١٦.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٠٦/٢٦.

«فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم.

قال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: (والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا).

وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة»[١].

الثاني: ان المراد علامتهم في وجوههم وهم في الآخرة، وفي تعيينها أمران:

١) أنها علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يعرفون بها لما كان من سجودهم له في الدنيا.

قال ابن عباس: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة.

وقال عطية: مواضع السجود من وجوههم يوم القيامة أشد وجوههم بياضا، وهو كقوله تعالى: ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين]، وكقوله: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ..... ﴿١٠٦﴾ ﴾ [آل عمران] [٢].

قال الرازي: «وعلى هذا فنورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ..... ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام] ومن يحاذي الشمس يقع شعاعها على وجهه، فيتبين على وجهه النور منبسطا مع أن الشمس لها نور عارضي يقبل الزوال، والله نور السموات والأرض فمن يتوجه إلى وجهه يظهر في وجهه نور يبهر الأنوار»[٣].

٢) أنهم يبعثون غرا محجلين من أثر الطهور، مصداقا لقوله (ﷺ): {إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء[٤]}[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣٦٢/٧.

(٢) ينظر: جامع البيان:٢٦٢/٢٢، والكشف والبيان: ٦٥/٩، ومعالم التنزيل: ٢٤٥/٤، المحرر الوجيز:١٤١/٥، وزاد المسير: ١٣٩/٤، ولباب التأويل:١٧٢/٤، وروح المعاني: ٢٧٨/١٣، وفتحُ البيان: ١٢٠/١٣، والتحرير والتنوير: ٢٠٦/٢٦.

(٣) مفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء: ١/ ٣٩ (١٣٦).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز:١٤١/٥، وزاد المسير: ١٣٩/٤، ولباب التأويل:١٧٢/٤.

قال ابن عباس: (هو وعد بحالهم يوم القيامة من الله تعالى، يجعل لهم نورا من أثر السجود كما يجعل غرة من أثر الوضوء)[١].

وقال ابن عطية: «ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ كأنه قال: علامتهم في تحصيلهم الرضوان يوم القيامة: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾»[٢].

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: «إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيماء هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخص ذلك على وقت دون وقت، وإذ كان ذلك كذلك، فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وزهده وسمته، وآثار أداء فرائضه وتطوعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك الغرة في الوجه والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود»[٣].

قال ابن عطية: «والأولى حملها عليها كلها لتكون من سيماء المصلي هذه الصفات الجمة»[٤].

ولا يبعد أن يكون النور علامة في وجوههم في الدنيا والآخرة لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي (ﷺ) بالذكر، وهو لا يقتضي تعطيل الاحتمالات الباقية إذ كل ذلك من السيما المحمودة ولكنّ النبي (ﷺ) ذَكر أعلاها[٥].

وأما وجه إضافة الأثر إلى السجود كون هذه السيماء جاءت من التأثير الذي يؤثره السجود، ولهذا لم يقل: سيماهم في وجوههم من السجود[٦]، فضلا عن أنه سبحانه وتعالى اختار لفظ السجود لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله وفي أكمل صورها في ملامح الوجه، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق] {اقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد}[٧] إذ تتوارى الخيلاء

---

(١) الجواهر الحسان: ٢٦٣/٥.

(٢) المحرر الوجيز: ١٤١/٥.

(٣) جامع البيان: ٢٦٥/٢٢.

(٤) المحرر الوجيز: ١٤١/٥.

(٥) ينظر: روح المعاني: ٢٧٨/١٣، والتحرير والتنوير: ٢٠٦/٢٦.

(٦) ينظر: الكشاف: ٣٤٨/٤، وروح المعاني: ٢٧٧/١٣.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود: ١/ ٣٥٠ (٤٨٢).

والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا[١].

ولما أتم وصفهم بهذا الأمر الذي لا يقدر عليه أحد إلا من صفاه الله من جميع حظوظه وشهواته، أشار إلى علوه فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[٢] إشارة منه تعالى إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته في الفضل[٣].

والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن. أي: ذلك الذي ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجرى مجرى الأمثال، صفتهم في التوراة التي أنزلها الله تعالى على نبيه موسى (عليه السلام) [٤].

ومما جاء في التوراة من ذلك في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: ((أتانا ربنا من سيناء وشرق لنا من جبل ساعير، وظهر لنا من جبل فاران، معه ربوات الأطهار على يمنه، أعطاهم وحببهم إلى الشعوب وبارك على جميع أطهاره وهم يتبعون آثارك)).

فظهوره من فاران صريح في نبوة محمد (ﷺ) فإنه لم يأت منها وهي جبال مكة باتفاقهم بعد نزول التوراة بالنبوة غيره، وربوات الأطهار: إشارة إلى كثرة أمته، وأنهم في الطهارة كالملائكة، وآية ذلك جعلهم من أهل اليمين، ووصفهم بالتحبيب إلى الشعوب، فكل ذلك دال على ما وصفوا به منا من شهادة الوجود هذا مع ما وجدته في التوراة بعد تبديلهم لما بدلوا منها وإخفائهم كما قال الله تعالى لكثير منها [٥].

---

[١] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٣٣٢/٦، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٧.

[٢] ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٦.

[٣] ينظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ١١٥، وروح المعاني: ٢٧٨/١٣.

[٤] ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٨.

[٥] ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٦.

إن هذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة وإنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة، وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها[١].

وهكذا يركّز التصوير في المثل على الصفات الحسية والمعنوية التي يتحلّى بها المسلم، فسمات العبادة والإيمان واضحة في قسمات الوجوه والنواصي، وصفات الخير مجسّدة في سلوك عملي ظاهر، لأن النفس الصافية، يظهر أثرها في نقاء الشكل ووضاءته، فالعلاقة بين الظاهر والباطن قويّة واضحة، فلا يمكن أن نفصل بين باطن الإنسان وظاهره، أو بين سلوكه وعقيدته، فالسلوك الظاهر، يدلّ على جوهر الإنسان ومعدنه، وهكذا تتفاعل الصفات الحسية والمعنوية في تصوير المثل، وتترابط فيما بينها للإيحاء بهذا المعنى الذي يعدّ من قواعد الدين الأساسية[٢].

المطلب الثاني
الصفات المذكورة في الإنجيل

لما ذكر الله تعالى مثلهم في التوراة، أتبع ذكرهم في الإنجيل ليعلم أنه قد أخذ على كل ناسخ لشريعته أن يصفهم لأمته ليتبعوهم إذا دعوهم فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ۝٢٩﴾ [الفتح] فكان ذلك كله مثله[٣].

ومعنى الشطء: هي تلك الفروع التي تصدر عن ذلك العرق الأول، فتجده قد انضم إليه ونبتت معه الكثير من الفروع والجذور، حتى تصبح الشجرة به أشجاراً.

يقال: أشطأ الزرع فهو مشطىء إذا خرج وخرجت غصونها.

قال مقاتل: هو نبت واحد فإذا خرج بعده فهو شطء.

وقال السدِّي: هو أن يخرج معه الطاقة الأخرى[٤].

لذا فهو أول ما يبدو من النبات على ظاهر الأرض[٥].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٣٣٢/٦.

(٢) ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٦٢.

(٣) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٧.

(٤) ينظر: معالم التنزيل: ٢٤٥/٤، والمحرر الوجيز:١٤٢/٥، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٥/١٦، والبحر المحيط: ١٠١/٢، واللباب: ٥١٧/١٧.

(٥) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٣٠/١٣.

واللفظ فيه استعارة الإخراج إلى تفرع الفراخ من الحبة لمشابهة التفرع بالخروج ومشابهة الأصل المتفرع عنه بالذي يخرج شيئاً من مكان، والمعنى منه: فراخ الزرع وفروع الحبّة، يقال: شطأ الزرع وأشطأ، إذا أخرج فروعه التي تتولد عن الأصل(١).

قال قتادة: هذا مثل أصحاب محمد (ﷺ) في الإنجيل، مكتوب أنه سيخرج من أمة محمد (ﷺ) قوم ينبتون نباتا كالزرع، منهم قوم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر(٢).

قال الطبري: «صفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرخ فهو يشطي إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ، لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي»(٣).

ولما ذكر هذا الإخراج ذكر ما تسبب منه في قوله: ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، والمؤازرة: المعاونة أو الإعانة، والمعنى منه: قواه وأعانه وشده، أي قوى الشطء الزرع.

وقيل العكس، أي: قوى الزرع الشطء(٤).

قال القاسمي: «العادة أن الأصل يتقوى بفروعه، فهي تعينه وتقويه»(٥)، ويكون المعنى أن تلك الفروع قد قوت أصولها، وآزرتها، وجعلتها مكينة ثابتة في الأرض(٦).

قال ابن زيد: اجتمع ذلك فالتفت; وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء، فلم يزل الله يزيد فيهم، ويؤيدهم بالإسلام، كما أيد هذا الزرع بأولاده، فآزره، فكان مثلا للمؤمنين(٧).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠٨/٢٦، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٨.

(٢) جامع البيان: ٢٢/ ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٥/٢٢.

(٤) ينظر: الكشاف: ٣٥٠/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٥/١٦، وأنوار التنزيل: ١٣٢/٥، وروح البيان: ٩/ ٥٩.

(٥) محاسن التأويل: ٥١٣/٨.

(٦) ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ١٣/ ٢٨٨.

(٧) جامع البيان: ٢٦٩/٢٢.

ثم سبّب عن تلك المؤازرة فيه وجود القيام العدل وجودا عظيما كأنه كان بغاية الاجتهاد والمعالجة بقوله ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [١] أي: فصار الزرع غليظا بعد أن كان رقيقا، فاستقام وتكامل على سيقانه التي يعلو عليها[٢].

قال ابن الجوزي: «وهذا مثل ضربه الله عز وجل للنبي (ﷺ) إذ خرج وحده، فأيده بأصحابه، كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى كبرت وغلظت واستحكمت»[٣].

وقال ابن عاشور: «وهذا التمثيل قابل لاعتبار تجزئة التشبيه في أجزائه بأن يشبه محمد(ﷺ) بالزارع كما مثل عيسى غلب الإسلام في الإنجيل، ويشبه المؤمنون الأولون بحبات الزرع التي يبذرها في الأرض»[٤].

ووجه التشبيه أنه (ﷺ) خرج وحده ثم أتبعه القلة من هاهنا وهاهنا حتى كثروا وقوي أمرهم[٥].

ثم يستمر نص التمثيل لينتهي عند قوله تعالى: ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ إذ أعجبوا بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره، فالجملة في موضع الحال معجبا لهم، وخصوا بالذكر لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم[٦].

«وإذا أعجبهم وهم في غاية العناية بأمره والتفقد لحاله والملابسة له ومعرفة معانية كان لغيرهم أشد إعجابا، ومثل لأنهم يكونون قليلين ثم يكثرون مع البهجة في عين الناظر لما لهم من الرونق الذي منشؤه نور الإيمان وثبات الطمأنينة والإيقان وشدة الموافقة من بعضهم لبعض، ونفي المخالف لهم وإبعاده»[٧].

«وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي (ﷺ)، يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي (ﷺ) حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي

---

[١] ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٧.

[٢] ينظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ١١٥، وروح البيان: ٩/ ٥٩، وفتحُ البيان: ١٢١/١٣، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ٢٨٨/١٣.

[٣] زاد المسير: ١٤٠/٤.

[٤] التحرير والتنوير: ٢٠٩/٢٦-٢١٠.

[٥] ينظر: غرائب القرآن: ١٥٤/٦.

[٦] ينظر: المحرر الوجيز: ١٤٢/٥، ومفاتيح الغيب: ٨٩/٢٨، والبحر المحيط: ١٠٢/٢، والدر المصون: ٩/ ٧٢٤، واللباب: ٥١٨/١٧، والسراج المنير: ٤/ ٥٩، وروح البيان: ٩/ ٥٩، وروح المعاني: ٢٨٠/١٣.

[٧] نظم الدرر: ٧/ ٢١٨.

أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان»[١].

وصورة الزرع الحسية بمراحل نموه، تشبه صورة المؤمنين، ومراحل نموّهم من الضعف إلى القوة، ومن القلّة إلى الكثرة، لأن كل واحد منهم له ذاتيته إلى جانب هذه الشجيرات الكبيرة التي يضمها الحقل، حتى أصبح لهم وجود قوي يتحدّى الرياح والعواصف، وهذا الوجود القوي يعجب الزرّاع الذين أسهموا في نموه ورعايته وحراسته ليصبح للإسلام كيان قوي[٢].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ.....﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ..... ﴿٣﴾﴾ [المائدة] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا المثل الذي أشار إليه القرآن موجود في إنجيل (متى ولوقا) وترجمته بالعربية: انظروا إلى زارع خرج للزرع، وبينما هو يزرع سقط بعض البذر في الطريق فجاءت الطيور ولقطته وسقط بعضه على الصخر حيث لم يكن التراب كثيرا، وفي ساعته نبت لأنه لم يكن له في الأرض عمق، ولما طلعت الشمس احترق ويبس لأنه لم يكن له أصل وسقط بعضه في الشوك فنما الشوك وخنقه وسقط بعضه في الأرض الطيبة وأثمر بعضه مائة ضعف وبعضه ستين وبعضه ثلاثين، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع.

وهذا هو معنى الآية الكريمة بعينه وهذا في بعض أمثالهم في الإنجيل وقد غفل عنه النصارى وأولوه بتأويل ضعيف وقالوا:

إن هذا المثل فيمن يعمل الخير ويسمع الواعظ وجعلوه من التهذيب، ولم يفكروا في قوله: فمن كانت له أذن سامعة فليستمع فإن فيه من الكناية ما لا يوجد في غيره، فإن قيل: لم لا يحمل على ما حمله عليه النصارى، فيكون المراد بالزراع عمل الخير، وبالإثمار مطلق الجزاء؟

أجيب: أنه لا يجوز الحمل على هذا المعنى لوجوه:

الأول: أن ذلك مذكور في القرآن والمطابقة لازمة.

---

[١] الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٥/١٦.

[٢] ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٣١/١٣، وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٦٢-١٦٣.

الثاني: أن التعريف يفيد العهد، والعهد يفيد التخصيص والتخصيص يباين العموم فيفيد ما ذكرته فلا يفيد ذلك وهذا برهان مقنع لمن كانت له أذن واعية من النصارى والمسلمين[١].

ولما أنهى سبحانه مثلهم، ذكر الثمرة في جعلهم كذلك فقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ٢٩﴾ [الفتح] معلقا له بما يؤخذ من معنى الكلام وهو جعلهم كذلك لأجل أن يغيظ بهم الكفار غيظا شديدا بالغ القوة والإحكام[٢].

وفي قوله: ﴿لِيَغِيظَ﴾ توجيهات ثلاثة:

أولا: أنه متعلق بـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٩﴾ [المائدة] لأن الكفار إذا سمعوا بعز المؤمنين في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة غاظهم ذلك.

ثانيا: أن يتعلق بمحذوف دل عليه تشبيههم بالزرع في نمائهم وتقويتهم، أي: شبههم الله بذلك ليغيظ.

ثالثا: أنه متعلق بما دل عليه قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ إلى آخره أي: جعلهم بهذه الصفات ليغيظ[٣].

قال الألوسي: «وظاهر كلام بعضهم أنه علة للتمثيل وليس بذاك .... فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله تعالى للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العزة غاظهم ذلك»[٤].

وبعد استكمال عناصر تصوير المثل، واستحضار صورة الممثل له في الذهن، حتى أصبح المثل مطابقا للممثل له، جاء التعقيب على هذا التصوير، وكأن هذا التعقيب هو بمثابة توضيح الغرض من تصوير المثل، وهذه هي الطريقة المتبعة في تصوير الأمثال القرآنية فبعد تصوير المثل والانتهاء منه، يعود التعبير القرآني إلى الممثل له، ويتابع الكلام عنه، ويترك صورة المثل لتبرز القضايا الأساسية من تصويره[٥].

---

[١] ينظر: فتحُ البيان: ١٣/١٢١-١٢٣، والتحرير والتنوير: ٢٦/٢٠٨.

[٢] ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٨.

[٣] ينظر: الكشاف: ٤/٣٥٠، والتسهيل: ٢/٢٩٣، والدر المصون: ٩/ ٧٢٤ ـ ٧٢٥، واللباب: ١٧/٥١٨، والسراج المنير: ٤/ ٥٩.

[٤] روح المعاني: ١٣/٢٨١.

[٥] ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٦٣.

ومنه فهو إشارة إلى هذا الزرع الطيب، الذي يملأ العين سرورا ورضا، وهو في الوقت نفسه يملأ قلوب الكافرين حسرة وحسدا[١].

إن هذا المثل ليس مستحدثا، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد (ﷺ) ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يأتون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى أنموذجا للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات[٢].

هذه هي أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها، فانظر الآن وتأمل في تخاذلها وجهلها حتى أصبحت مثلا في الخمول والجهل، وأصبحت زرعا هشيما تذروه الرياح، فكيف يجتمع عصفه وتبنه؟

ولعل الله يبدل الحال غير الحال ويخضر الزرع بعد ذبوله، وتعود الأمة سيرتها الأولى مهيبة مرعية الجانب مخشية القوة[٣].

ولما تم مثلهم وعلة جعلهم كذلك، بشرهم بتعليق الوعد بالوصف على عادة القرآن ترغيبا في التمسك به وترهيبا من مجانبته: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾[٤].

فضلا عن أن مجيء الوعد بهذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفتهم، تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة، تكريما ورضا من الفيض الإلهي دون حدود ولا قيود[٥].

قال ابن كثير «أي: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، (رضي الله عنهم) وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل»[٦].

---

[١] ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٣١/١٣.

[٢] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٣٣٣/٦.

[٣] ينظر: تفسير المراغي: ١١٧/٢٦.

[٤] ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٨.

[٥] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٣٣٣/٦.

[٦] تفسير القرآن العظيم: ٣٦٣/٧.

وقال الطبري: «قوله ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع الذي وصف ربنا تبارك وتعالى صفته، والهاء والميم في قوله ﴿مِنْهُم﴾ عائد على معنى الشطء لا على لفظه، ولذلك جمع فقيل: (منهم)، ولم يقل (منه)، وإنما جمع الشطء لأنه أريد به من يدخل في دين محمد (ﷺ) إلى يوم القيامة بعد الجماعة الذين وصف الله صفتهم بقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾»[١].

وقال البقاعي: «قيد بقوله: ﴿مِنْهُم﴾ أي من الذين معه ﷺ سواء كانوا من أصل الزرع أو فراخه التي أخرجها وهم التابعون لهم بإحسان»[٢].

كقوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ ونحو ذلك من الآيات.

ثم إن ثمة اختلافا في قوله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ جنسية أم تبعيضية؟

والظاهر مما أجمع عليه المفسرون انها لإبانة الجنس، وليست للتبعيض، لأنه وعد مرجو للجميع فهي كقوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ [الحج] أي فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى، منها الزنا والربا وشرب الخمر والكذب، وكذا (منهم)، أي من هذا الجنس، يعني جنس الصحابة[٣].

ويحتمل أن يقال هو للتبعيض، ومعناه: من ثبت منهم على الإيمان والعمل الصالح فله المغفرة والأجر العظيم[٤].

قال ابن عاشور: «ويجوز إبقاؤه على ظاهر المعنى من التبعيض لأنه وعد لكل من يكون مع النبي (ﷺ) في الحاضر والمستقبل فيكون ذكر (من) تحذيراً وهو لا ينافي المغفرة لجميعهم لأن جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات وأصحاب الرسول (ﷺ) هم خيرة المؤمنين»[٥].

---

[١] جامع البيان: ٢٢/٢٧٠.

[٢] نظم الدرر: ٧/ ٢١٨ .

[٣] ينظر: الكشاف: ٤/٣٥٠، والمحرر الوجيز: ٥/١٤٣، وزاد المسير: ٤/١٤٠، ومفاتيح الغيب: ٢٨/٩٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٩٦، والبحر المحيط: ٢/١٠٢، وتفسير القرآن العظيم: ٧/٣٦٣، واللباب: ١٧/٥١٨، والجواهر الحسان: ٥/٢٦٦، والسراج المنير: ٤/ ٥٩، والتحرير والتنوير: ٢٦/٢١١.

[٤] ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٥/٢١٠-٢١١، وزاد المسير: ٤/١٤٠، ومفاتيح الغيب: ٢٨/٩٠.

[٥] التحرير والتنوير: ٢٦/٢١١.

وتعقب الألوسي القول على من تسول له نفسه الطعن في الصحابة الكرام بان هذا الوعد لبعضهم لا لكلهم «فإن مدحهم السابق بما يدل على الاستمرار كقوله تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ بما يدل على الدوام والثبات كقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ يأبى التبعيض والارتداد الذين زعموه عند من له أدنى إنصاف وشمة من دين، ويزيد زعمهم هذا سقوطا عن درجة الاعتبار أن مدحهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبل أن يخلق السموات والأرض، ولا يكاد عاقل يقبل أنه تعالى أطلق المدح وكتبه لأناس لم يثبت على تلك الصفة إلا قليل منهم»[١].

والآية هذه ترد قولهم أنهم كفروا بعد وفاة النبي (ﷺ) إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون لو أن ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته (ﷺ) [٢].

قال القرطبي: «الصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة، وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث، وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم (ﷺ) ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك، وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب»[٣].

قال (ﷺ): {خير الناس قرني ثم الذين يلونهم}[٤]، وقال أيضا:{لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه}[٥].

---

[١] روح المعاني: ٢٧٩/١٣.

[٢] ينظر: فتحُ البيان: ١٢٤/١٣.

[٣] الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٩/١٦.

[٤] صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد: ٣/ ١٧١ (٢٦٥٢).

[٥] صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة (ﷺ): ٤/ ١٩٦٧ (٢٥٤٠).

ولله در الإمام ابن القيم معلقا «فهذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة، والإنجيل، والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون، طالبو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديهم، وسيرتهم، وعدلهم، وعلمهم، ورحمتهم، وزهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء؛ وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من أعدائهم»[١]. ويقصد أبناء جلدتهم من الشعوبيين وغيرهم.

ومن الملاحظ أن تلك الصفات التي ذكرت في الكتب السماوية القديمة إنما تناولت تلك القيم النفسية، من قوة في الحق، وتراحم بين الناس، ومؤاخاة، وإخلاص طاعة، وكلها صفات وقيم تغطي على تلك القيم التي جرى الناس عليها في وقتنا الحاضر من تفاخر بالمال وكثرته، وطغيان بالمركز والجاه، وتعال على الآخرين باللون والحسب والنسب، وهى ما تلبث أن تذروها الرياح ولا يبقى منها شيء[٢].

ومن الملاحظة بمكان أن هذه الآية قد جمعت جميع حروف المعجم إشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم وعلو نصرهم، تلويحا إلى أن أمرهم لا بد من تمامه، واشتداد سلكه وانبرامه، واتساق شأنه وانتظامه، وخفوق ألويته وأعلامه.

كذلك وان افتتاحها بميم ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ وهي مضمومة، وختمها بميم ﴿عَظِيمًا﴾ المنصوبة إشارة بما للميم من الختام بمخرجها إلى أن تمام الأمر قد دنا وحضر زمانه، وبما في أولها من الضم إلى رفعه دائمة في حمد كثير، وبما في آخرها من النصب إلى تمام الفتح وانتشاره.

ويدرك ذلك في مناسبة البدء والاختتام إذ ظهر بصريح العبارة في الآية من القوة المعزة للمؤمنين المذلة للكافرين والصفات الأخرى السابقة بالذكر برد مقطعها على مطلعها بالفتح للنبي (ﷺ).

والإشارة منه: أن من أراد الفتح والنصر والتأييد فعليه بالجد الحثيث على التسربل بهذه الصفات المذكورة في التوراة والإنجيل والقرآن أفرادا ومجتمعات ليتسنى لهم ما توافر عند الأجداد من

---

[١] زاد المعاد: ٣/٢٨٠.

[٢] ينظر: عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن: ٢٥٨.

الفتوحات، وكأن النص جاء هكذا: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ [الفتح] ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[1].

ولو أخذنا المثالين ونظرناهما في التوراة والإنجيل لم نجد اختلافا في وصف أصحاب محمد (ﷺ)، فالوصفان ثابتان، ولكن هذا التوزيع المدرج شيء مقصود متلائم مع سياقه، وكلاهما في كمال المدح؛ لأنهم جمعوا بين أمر الدنيا والدين معاً، في الدنيا زرع ونماء، وفي الدين ركّع سجّد، بخلاف اليهود والنصارى.

فالتوراة جاءت ببشارة أن محمدا (ﷺ) سيجيء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقِيمية التي لا توجد في اليهود الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقي أرواحهم بالقيم الدينية، والذين لا تجد في توراتهم المحرفة أي شيء عن اليوم الآخر، إذ كلها أمور مادية، أما في الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة، والماديات فيها ضعيفة.

لذلك جاء القرآن منهجا متكاملا تنتظم به الحياة، قيما حارسة، ومادة محروسة؛ فالعالم يفسد حين تأتي المادة فتطغى وتنحسر القيم، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية تدافع عنها، فيأبى القوي الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل في البناء الاجتماعي.

إذن: فنحن في حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة، ومادة تحرسها قيم.

لذا أخبر الله عن قوم موسى (عليه السلام) بأنهم لا يمتلكون القيم المعنوية، ويعتزون بالقيم المادية، وستأتي أمة محمد التي تملك قيم الروح والمادة، فهم ركع، سجد، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود.

وأبلغ سبحانه قوم عيسى (عليه السلام) أن محمدًا (ﷺ) سيأتي في أمة بمنهج يعطيكم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب انعزالكم عن الحياة وابتداعكم رهبنة ما كتبها الله عليكم[2].

وعليه، فالحق جل شأنه يريد حضارة تجمع بين الاثنين؛ بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديننا وسطا بينهما، وعندها فعلينا أن ننتهز الفرصة لنصحح الأخطاء ونستأنف حياة صافية تربطنا بالسماء رباطا يجمع بين دين قيمي يتطلب منا حركة الدنيا وحركة الآخرة، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب[3].

---

[1] ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٢١٨ ـ ٢١٩، وفتحُ البيان: ١٣/١٢٤.

[2] ينظر: تفسير الشعراوي: ٩/ ٥٥١٦ ـ ٥٥١٧.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ٥/٣٠٢٩.

لقد كان هذا الكتاب هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل فريد، جيل لم يتكرر في تاريخ البشرية لا من قبل ولا من بعد جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممتد، الذي لم يُدرس حق دراسته إلى الآن، لقد كان هذا المصدر هو الذي أنشأ بمشيئة الله وقدره، والذي ظل امتداده أكثر من ألف عام، وكان هذا المجتمع معجزة أخرى في تاريخ البشرية حين تقارن إليه صور المجتمعات البشرية الأخرى، التي تفوقه في الإمكانيات المادية بحكم نمو التجربة البشرية في عالم الماديات[١].

هكذا قد تحقق وعد الله في الصورة الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية، ووعد الله لا يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة ولا يزال هذا الدين ظاهرا على الدين كله في حقيقته، بل إنه الدين الوحيد الباقي كونه قادرا على العمل والقيادة في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب![٢].

المبحث الثالث

الحث على الجهاد بالنفس والمال

رغب الله تعالى المؤمنين في الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة، ومثل إثابتهم على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم السرمدي تفضلا منه تعالى وتكرما بصورة من باع شيئا هو له لآخر، إذ عاقد عقد البيع هو رب العزة جل في علاه، والمبيع هو بذل الأنفس والأموال، والثمن هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل كونهم قاتلين أيضا لإعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه سبحانه.

وناهيك به من صك لا يقبل التحلل والفسخ، فنسيئته أقوى من نقد غيره، وكل هذا لطف منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذي خلقها، ولأموالهم إذ هو الذي رزقها[٣].

---

[١] ينظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٤٢٣.

[٢] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٣٣١/٦.

[٣] ينظر: روح المعاني: ٢٦/٦، وتفسير المراغي: ٣٣/١١.

وجعل هذا العقد مسجلا في الكتب السماوية المنزلة على أشهر رسله دون أن تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب بنصه، لما هو ثابت من ضياع كثير منهما، وتحريف بعض ما بقي لفظا ومعنى، واكتفى بإثباته في القرآن المهيمن عليهما.

فضلا عن أن عقد المبايعة وقع على أيدي رسل الله تعالى جبريل ومحمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فأكد هذا حصوله ووجوده؛ كونه موثوقا به تمام الثقة[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة].

«وهاتان الآيتان في بيان حال المؤمنين حق الإيمان، البالغين فيه ما هو غاية له من الكمال، وضعتا بعد بيان حال المنافقين، وأصناف المؤمنين المقصرين، ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله»[٢].

فضلا عن أن عبارتهما واضحة لما احتوتا من بشرى ربانية للمؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وحثا على ذلك وتعدادا لصفات المؤمنين المخلصين واستغراقهم في دينه وواجباته على سبيل التنويه والتثبيت[٣].

وإطلالة لتوضيح معانيها وومضة من مشاهدها المشرقة المتلألأة نبينها فيما يأتي من مطالب:

المطلب الأول
الصفقة الإلهية مع المؤمنين

وهو ما تمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ إذ أخبر الله تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: (بايعهم والله فأغلى ثمنهم).

---

[١] ينظر: تفسير المنار: ١١/٤٠، وتفسير المراغي: ١١/٣٢.

[٢] تفسير المنار: ١١/٣٩.

[٣] ينظر: التفسير الحديث: ٩/٥٣٨.

وقال ابن عطية: (ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وفى بها أو مات عليها) ثم تلا هذه الآية[١].

قال القاسمي: «لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان، والأنفس مفتونة بمحبة الأموال والأنفس، استنزلهم لفرط عنايته بهم، عن مقام محبة الأموال والأنفس، بالتجارة المربحة، والمعاملة المرغوبة، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم، فعرض لهم خيرا مما أخذ منهم، فالآية ترغيب في الجهاد ببيان فضيلته إثر بيان حال المتخلفين عنه»[٢].

وهكذا ترسم الصورة لنا كل أطراف البيع والشراء، والبائع والمشتري، والثمن، فالبائع هو المؤمن، والمشتري هو الله، والثمن الجنة، ومن رحمته أن جعل الإنسان مالكا لنفسه وماله، يتصرف فيهما بحرية واختيار وإرادة، ليقبض الثمن وهو الجنة، وإن كان الله هو المالك الحقيقي للأنفس والأموال، ولكن القرآن الكريم صور الإنسان مالكا وبائعا وقابضا للثمن، لتكون الصورة ملائمة للواقع المنظور في الحياة، بدلا من تصوير الغيب المستور[٣].

ومن عجب أن يشتري الله هذه السلعة وهي ملكه، وما ذاك إلا لرفعة قيمة هذا الإنسان، فعن مالك بن دينار أنه مر بقصر يعمر، فسأل الأجراء عن أجرتهم، فأجابه كل واحد منهم بما كانت أجرته، ولم يجبه واحد، فقال: (ما أجرتك)؟ فقال: لا أجر لي. فقال: (ولم ذلك)؟ قال: لأني عبد صاحب القصر. فقال مالك: (إلهي ما أسخاك، الخلق كلهم عبيدك، كلفتهم العمل ووعدتهم الأجر)[٤].

وقال جعفر الصادق: (ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها)[٥].

وقال كذلك: (يا ابن آدم اعرف قدر نفسك فان الله عرفك قدرك لم يرض أن يكون لك ثمن غير الجنة)[٦].

---

[١] ينظر: جامع البيان: ٤٩٩/١٤، وتفسير القرآن العظيم: ٢١٨/٤.

[٢] محاسن التأويل: ٥٠٩/٥.

[٣] ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١١٣.

[٤] تفسير التستري: ٧٤.

[٥] مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥١.

[٦] روح البيان: ٥١٣/٣.

وفي معنى الشراء قال القرطبي: «أصل الشراء بين الخلق أن يعوضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم في النفع؛ فاشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك، وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوض ولا يقاس به، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنوال فسمي هذا شراء»[١].

وقال الرازي: «لا يجوز أن يشتري الله شيئا في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك،... وحقيقة هذا أن المؤمن متى قاتل في سبيل الله حتى يقتل، فتذهب روحه، وينفق ماله في سبيل الله، أخذ من الله في الآخرة الجنة جزاء لما فعل. فجعل هذا استبدالا وشراء»[٢].

وذكر الشراء على وجه المثل؛ لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى، وهي عند أهلها عارية، ولكنه أراد بذلك التحريض والترغيب في الجهاد، والقصة أن الله تعالى وهب لعباده الأنفس والأموال ثم أمرهم ببذلها في ذاته ووعدهم على ذلك ما هو خير منها، فهذا غاية التفضل، وهذا كقوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة] [٣].

فضلا عن أنه تعالى لم يجعل الأمر على العكس بأن يقال: إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلها من الأنفس والأموال وسيلة إليها، إيذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم.

كذلك لم يقل (بالجنة) بل قال ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، ولان (أن) تفيد توكيد المستقبل، وكأنه قال: بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم[٤].

ثم إنها عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة[٥].

---

[١] الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٧/٨.

[٢] مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥٠، وينظر: اللباب: ٢١٦/١٠، ولباب التأويل: ١٥١/٣، وفتحُ البيان: ٤٠٤/٥.

[٣] ينظر: بحر العلوم: ٨٩/٢، والمحرر الوجيز: ٨٧/٣، وزاد المسير: ٣٠٢/٢.

[٤] ينظر: روح البيان: ٥١٣/٣، وفتحُ البيان: ٤٠٣/٥، ومحاسن التأويل: ٥٠٩/٥، وروح المعاني: ٢٧/٦، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ٤٠٩/٦.

[٥] ينظر: المحرر الوجيز: ٨٧/٣، والجامع لأحكام القرآن: ٢٦٧/٨، والبحر المحيط: ١٠٥/٥.

قال ابن عيينة: اشترى منهم أنفسهم ألا يعملوها إلا في طاعته، وأموالهم ألا ينفقوها إلا في سبيله، فالآية على هذا: أعم من القتل في سبيل الله[١].

ويلفت النظر إلى ما فيها من مغزى عظيم يتضمن تقريرا هو أن المسلم المخلص بمجرد انتسابه للإسلام يكون قد باع نفسه لله ليجاهد في سبيله بماله ونفسه وان الله قد اشترى ذلك بالجنة ففي هذا ما فيه من قوة الحث على الجهاد والدعوة إليه، وقوة عنصر الاستجابة فيه واعتباره أقوى أركان الإسلام ودعائمه، وطبيعي أن هذا الجهاد يدور في نطاق المبادئ التي قررها القرآن الكريم وقرتها الكتب السالفة من قبل[٢].

وقد ذكر الرازي أن المشتري لا بد له من بائع، والبائع والمشتري هو الله، وهذا إنما يصح في حق القيم بأمر الطفل الذي لا يمكنه رعاية مصالحه، وصحة هذا البيع مشروطة برعاية الغبطة العظيمة، فهذا المثل جار مجرى التنبيه على كون العبد شبيها بالطفل الذي لا يهتدي إلى رعاية مصالح نفسه، وأنه تعالى هو المراعي لمصالحه بشرط الغبطة التامة، والمقصود منه التنبيه على السهولة والمسامحة، والعفو عن الذنوب، والإيصال إلى درجات الخيرات ومراتب السعادات[٣].

وفي تقديم الأنفس على الأموال على خلاف المواضع كلها التي جاء فيها ذكر الأموال والأنفس مجتمعين في القرآن سبب؛ وهو انه تعالى ابتدأ بالأشرف وبما لا عوض له إذا فقد، ولان الحديث في معرض الاستبدال والعرض والطلب، والأخذ والعطاء، ولأنها أعز ما يملكه الإنسان[٤].

على أن المال عند الناس أعز من الأنفس، إذ يتقاتلون من أجله، مخاطرين بأنفسهم في سبيله، فمحبتهم له وحرصهم عليه أضعاف حرصهم على سلامة أنفسهم، وإن تظاهر كثير منهم غير ذلك.

وفى اختلاف النظم هنا إلفات للناس إلى ما ذهلوا عنه من أمر أنفسهم، إذ استرخصوها إلى جانب المال على حين أنها شيء كريم عزيز عند الله[٥].

«فالمشتري قدم ذكر النفس تنبيها على أن الرغبة فيها أشد، والبائع أخر ذكرها تنبيها على أن المضايقة فيها أشد، فلا يرضى ببذلها إلا في آخر المراتب»[٦].

---

[١] ينظر: البحر المحيط: ١٠٥/٥، والجواهر الحسان: ٢١٧/٣.

[٢] ينظر: التفسير الحديث: ٥٣٩/٩.

[٣] ينظر: مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥٠.

[٤] ينظر: البحر المحيط: ١٠٥/٥، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١٤/ ٣٦٤.

[٥] ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٨٩٩/٦.

[٦] محاسن التأويل: ٢٨٦/٣.

ومن الجدير بالذكر أني وجدت سببا آخر هو أن موطن السياق الذي سيقت به النصوص كان في موضع الجهاد ومعلوم أن الجهاد أوسع في المعنى من القتال إذ يشتمل على معان عدة ومن معانيه القتال والمقصد منه التقاء طرفين وجها لوجه، وهذا بحسب تقديري سبب جوهري في تقديم الأنفس على المال لان العملية تحتاج إلى مواجهة ولا يكون ذلك إلا بالسنان أما الجهاد فيكون بالسنان واللسان.

وإنما اشترى الله سبحانه النفس ولم يشتر القلب؛ لأن الأنفس معيوبة، والقلوب نقية، فاشتراء العيوب يدل على أنه لا يرده لعلمه بالعَيب، فاشتراؤه دليل على أنه يريد إصلاح عَيْبك، ومَنْ كان قادراً على إصلاح عيْب السلعة لا يردها[١].

قال الالوسي: «نفسك موضع كل شهوة وبلية ومالك محل كل إثم ومعصية فاشترى مولاك ذلك منك ليزيل ما يضرك ويعوضك عليه ما ينفعك ولهذا اشترى سبحانه النفس ولم يشتر القلب.

وقد ذكر بعض الأكابر في ذلك أيضا أن النفس محل العيب، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره فشراء الله تعالى ذلك مع اطلاعه سبحانه على العيب بالجنة التي لا عيب فيها؛ نهاية الكرم»[٢].

وللبروسوي ملمح فيه: « فمن بذل نفسه وماله في طلب الجنة فله الجنة وهذا هو الجهاد الأصغر؛ ومن بذل قلبه وروحه في طلب الله فله رب الجنة وهذا هو الجهاد الأكبر؛ لان طريق التصفية وتبديل الأخلاق أصعب من مقاتلة الأعداء الظاهرة، فالقتل إما قتل العدو الظاهر وإما قتل العدو الباطن وهو النفس وهواها»[٣].

إذن فالله سبحانه وتعالى يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية، وينمي فينا قيمة الصفقة الإيمانية، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية، أو ليستذله، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له.

والدنيا بالنسبة للفرد هي زمن محدد، والله يبشر المؤمن الذي يقتل في سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمنا غير محدود، على أن البقاء فيها بدون قتل هو بقاء مظنون وغير متيقن، أما الآخرة

---

[١] ينظر: معترك الأقران: ٣٩٣/٢.
[٢] روح المعاني: ٥٠/٦.
[٣] روح البيان: ٥١٥/٣.

فهي غير محدودة ومتيقنة، فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة وجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة[١].

ومن رحمته أن جعل للصفقة ثمنا، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ومالكها، ومكرم هذا الإنسان الذي جعله مريدا بعقد العقود وإمضائها معه جل وعز، وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة، فهو نص رهيب يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله وعن حقيقة البيعة التي أعطوها بإسلامهم طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف المؤمن المتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق، ولا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه[٢].

والعجب كل العجب ممن يدعون الإيمان وهم ينكثون بيعة الله عز وجل، فهم لا يبذلون أنفسهم ولا شيئا من أموالهم في سبيله، وإنما يطلبون الجنة بغير ثمنها كما يطلبون سعادة الدنيا وسيادتها من غير طريقها، ولا طريق لها إلا الجهاد بالمال والنفس، والقرآن حجة عليهم وهو حجة الله البالغة التي لا يدحضها شيء وهي تدحض كل شيء[٣].

المطلب الثاني

آلية الصفقة والتأكيد الإلهي لها فيما سبق من الكتب السماوية

وهو ما تمثل في قوله تعالى: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ إذ بين الله تعالى ثمرة البيع وآثاره التي يتحقق فيها ما يجب على البائع، فبين ما يقاتل له وعليه، فقال سبحانه: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾[٤].

قال الرازي: «جعل يقاتلون كالتفسير لتلك المبايعة، وكالأمر اللازم لها»[٥].

---

[١] ينظر: تفسير الشعراوي: ٢٤٢٩/٤ ـ ٢٤٣٠.

[٢] ينظر: في ظلال القرآن: ١٧١٦/٣.

[٣] ينظر: تفسير المنار: ٤١/١١.

[٤] ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٨/٨.

[٥] مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥٢.

فالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن اشتراء الأنفس والأموال لغرابته في الظاهر يثير سؤالَ من يقول: كيف يبذلون أنفسهم وأموالهم؟ فقيل يقاتلون في سبيل الله وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعريضهما للهلاك[١].

فهو إذن بيانٌ لصفة تسليم المبيع، يقاتلون في سبيل الحق والعدل الموصلة إلى مرضاته تعالى، فيبذلون أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه، وإما مقتولين شهداء في سبيله[٢].

وعبر سبحانه بصيغة المضارع للدلالة على استمرار الجهاد في سبيله سبحانه إلى يوم القيامة، والغرض من القاتلية والمقتولية واحد وهو بيان ان القتال في سبيل الله بذل للنفس وأن المقاتل في سبيله باذل لها وإن كانت سالمة غانمة فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضا كما إذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانيين أو لم توجد المضاربة أيضا فإنه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد والظاهر أن أجور المجاهدين مختلفة قلة وكثرة وإن كان هناك قدر مشترك بينهم.

وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية إيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس.

وما ورد من قراءة حمزة والكسائي بتقديم المقتولية على القاتلية ففيه رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب وإيذانا بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله تعالى بل بكونه أحب إليهم من السلامة[٣].

قال البقاعي: «وهذه القراءة أمدح، لأن من طلب الموت لا يقف له خصمه فيكون المعنى: فطلبوا أن يكونوا مقتولين فقتلوا أقرانهم، ويجوز أن يكون النظر إلى المجموع فيكون المعنى أنهم يقاتلون بعد رؤية مصارع أصحابهم من غير أن يوهنهم ذلك»[٤]، فالقراءة هذه فيها إشارة إلى أن

---

[١] ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٠٥/٤، والتحرير والتنوير: ٣٨/١١.

[٢] ينظر: تفسير المنار: ٣٩/١١، وتفسير المراغي: ٣٢/١١.

[٣] ينظر: مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥١، وإرشاد العقل السليم: ١٠٥/٤، وروح البيان: ٥١٤/٣، وروح المعاني: ٢٨/٦.

[٤] نظم الدرر: ٣٨٩/٣، وينظر: مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥١، وتفسير الشعراوي: ٥٥١٣/٩.

حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض، وإلى الحياة الباقية الدائمة[١].

وقال ابن عاشور: «وفي قراءة الجمهور اهتمام بجهادهم بقتل العدو، وفي القراءة الأخرى اهتمام بسبب الشهادة التي هي أدخل في استحقاق الجنة»[٢].

ويمكن القول أن القراءتين دلتا على أن الواقع هو أن يقتل بعضهم ويسلم بعض، فالملكية التي أثبتوها لله تعالى تسوغ ذلك، وأنه لا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل، والمثوبة عند الله عز وجل، إذ كل منهما في سبيله لا حبا في سفك الدماء، ولا رغبة في اغتنام الأموال، ولا توسلا إلى ظلم العباد، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الأجناد[٣].

ولما كان القتل سببا للجنة بشارة ووعدا، أكده سبحانه بقوله: ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ فزيد التأكيد بحرف الإيجاب ﴿ عَلَيۡهِ ﴾ وأتمه بـ ﴿ حَقًّا ﴾.

ولما أكد هذه المبايعة الكريمة بهذه التأكيدات العظيمة، زاد ذلك بذكره في جميع الكتب القديمة التوراة والإنجيل والقرآن الجامع لكل ما قبله ولكل خير، فهو إخبار منه تعالى أنها في تلك الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى (عليه السلام) [٤].

قال ابن جبير: (ينجز ما وعدهم من الجنة في التوراة والإنجيل والقرآن)، ولما سئل الحسن عن الوعد الحق أين هو قال: (في التوراة والإنجيل والقرآن)[٥].

والوعد الحق مصدر مؤكد لأن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد فجاء هو مؤكدا لما تقدم من قوله: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾[٦].

قال القِنَّوجي: « ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا ﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف أي وعدهم وعدا وحق ذلك الوعد حقا أي تحقق وثبت إخبار من الله سبحانه بأن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله»[٧].

---

[١] ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ٤٠٩/٦.
[٢] التحرير والتنوير: ٣٩/١١.
[٣] ينظر: تفسير المنار: ٤٠/١١، وزهرة التفاسير: ٣٤٥٣/٧.
[٤] ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٨/٨، ونظم الدرر: ٣٨٩/٣.
[٥] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ١٨٨٧/٦.
[٦] ينظر: المحرر الوجيز: ٨٧/٣.
[٧] فتحُ البيان: ٤٠٥/٥.

ثم إن ثمة اختلافا في التأكيدات الواقعة في الكتب السابقة وهي على أقوال:

الأول: أن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت، فقد أثبته الله في التوراة والإنجيل كما أثبته في القرآن، فهو عام لأهل الملل كلهم إذ أن كل أمة أمرت بالجهاد ووعدت عليه بالجنة.

الثاني: المراد أن الله تعالى بين في التوراة والإنجيل أنه اشترى من أمة محمد عليه الصلاة والسلام أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، كما بين في القرآن، فهو خاص لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكورا في كتب الله المنزلة.

الثالث: أن الأمر بالقتال والجهاد هو موجود في جميع الشرائع[١].

قال القاسمي: «وذكر كونه في التوراة وما عطف عليها، تأكيدا له، وإخبار بأنه منزل على الرسل في الكتب الكبار، وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة في شرع من قبلنا»[٢].

ويبدو أن المعنى الراجح انه: «تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[٣].

لقد ظهرت الدعوة إلى الجهاد المقدس في الأديان الربانية الثلاثة، التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وكان ظهورها فيها بشكل بارز قوي.

أما موسى (عليه السلام) فقد طلب من بني إسرائيل أن يباشروه ليحقق الله لهم الفتح فرفضوا طلبه، وقالوا له كما أخبرنا الله تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ ﴾ [المائدة].

فقضى الله عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وتوفي موسى وهارون عليهما السلام دون أن يباشر بنو إسرائيل الجهاد، ثم باشروه في عهد طالوت بشكل إقليمي محدود، ولما فتح الله عليهم وأظفرهم بالملك، وتمتعوا بخيراته، وانتهت موجة الملك النبوي بانتهاء عهدي داود وسليمان عليهما

---

[١] ينظر: تفسير السمعاني: ٣٥١/٢، ومعالم التنزيل: ٩٨/٤، والمحرر الوجيز: ٨٧/٣، ومفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥٢، والبحر المحيط: ١٠٦/٥، وفتحُ البيان: ٤٠٥/٥.

[٢] محاسن التأويل: ٥١٠/٥.

[٣] تفسير القرآن العظيم: ٢١٨/٤.

السلام، استكانوا وفسدوا، وتحولت غاية الجهاد في نفوسهم من رسالة ربانية إلى غايات مادية وقومية عنصرية بحتة، وأخلدوا إلى الأرض فضرب الله قلوب بعضهم ببعض.

وأما عيسى (عليه السلام) فقد دعا قومه إلى الجهاد، وباشر منه المراحل الأولى، وهي الدعوة اللسانية، ولكن لم تمر عليه مدة من الزمان كافية تمكنه من أن ينتقل من طور جهاد الدعوة إلى طور جهاد النضال والكفاح المسلح، إذ رفعه الله إليه بعد ثلاث سنوات فقط من بدء دعوته.

وذو القرنين الذي قد قاد الجيوش، وقام بأعمال الفتح الديني على نطاق واسع جداً، مكن الله له في الأرض، وآتاه أسباب التمكين والقوة بحسب عصره، فاستعمل هذه الأسباب في نشر دين الله في الأرض، وامتدت فتوحاته حتى بلغ أقصى المعمور[١].

إن وعد الله للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور، وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيله وفي طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه، ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية، ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي يحمي نفسه بالقوة المادية، ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية[٢].

ومن الملاحظ أن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام، فهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد مدة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة، وهو قليل أضيف إليه الكثير، ومع ذلك لا تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد، وتحريض اليهود على قتال أعدائهم الوثنيين، لنصر إلههم وديانته وعبادته، وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل فلا حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم، وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فوعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن، فهو

---

[١] ينظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: ٧٠١ ـ٧٠٣.

[٢] ينظر: في ظلال القرآن: ١٧١٩/٣.

القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال، فالجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن، منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله جل في علاه[١].

لذا فقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين على عهد رسول الله (ﷺ) فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم فكانوا يتلقونها للعمل المباشر بها لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة حريصون كل الحرص على الموت في سبيل الله إذ إنهم يحبونه أكثر من محبة أعدائهم للحياة، فلا تطيب قلوبهم ولا يقرّ لهم قرار إلا بتحقيق أحد الأمرين: إما النصر، وإما الشهادة[٢].

المطلب الثالث
إنجاز العهد بالبشارة والفوز العظيم

وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ إذ أخبر سبحانه بترغيب المجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال ما لا يخفى، فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهي كون الجنة قد صارت ملكا لهم، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموعود به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه، ثم زادهم سرورا وحبورا، وأكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم[٣].

قال ابن حيان: «ولما أكد الوعد بقوله ﴿ عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أبرزه هنا في صورة العهد الذي هو آكد وأوثق من الوعد، إذ الوعد في غير حق الله تعالى جائز إخلافه، والعهد لا يجوز إلا الوفاء به، إذ هو آكد من الوعد»[٤]، «ولما كان ذلك سببا للتبشير، لأنه لا ترغيب في الجهاد أحسن منه، قال مهنئا لهم: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾»[٥].

---

[١] ينظر: في ظلال القرآن: ١٧١٨/٣-١٧١٩، والتفسير الحديث: ٥٤١/٩.

[٢] ينظر: في ظلال القرآن: ١٧١٧/٣.

[٣] ينظر: فتح القدير: ٢/ ٤٦٤، وفتحُ البيان: ٤٠٥/٥.

[٤] البحر المحيط: ١٠٦/٥.

[٥] نظم الدرر: ٣٩٠/٣.

قال الطبري: «ومن أحسن وفاء بما ضمن وشرط من الله، فاستبشروا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله فيما عاهدوا ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم به، فإن ذلك هو الفوز العظيم»[١].

ويفهم من معنى الوفاء بالعهد انه استفهام بمعنى الإنكار فلا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله عز وجل، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء، ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه[٢].

قال أبو السعود: «اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فإن إخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغني عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وإن كان على إنكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا إنكار المساواة ونفيها قطعا فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل»[٣].

فضلا عن أن قوله تعالى: ﴿ أَوۡفَىٰ ﴾ أتى بصيغة التفضيل من وفّى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله، كما وان ذكر اسم الجلالة عوضاً عن ضميره لإحضار المعنى الجامع لصفات الكمال[٤].

إذن: فالعهد الحقيقي إنما يؤخذ من الله، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامي فالإجابة: لا أحد؛ وإذا سمعه أي إنسان ثم أدار فكره في الكون ليبحث عن جواب، فلا يجد إلا أن يقول: (الله)، وما دام الوعد بالجنة، فالجنة لا يملكها إلا هو، والكل تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة[٥].

وتفرع على كون الوعد حقاً على الله عزوجل، وعلى أنه أوفى بعهده من كل واعد، أنْ يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، وأضيف البيع إلى ضميرهم إظهاراً لاغتباطهم به، ووصفه بالموصول وصلته تأكيداً لمعنى البيع فهو تأكيد لفظي بلفظ مرادف[٦].

---

[١] جامع البيان: ٤٩٨/١٤.

[٢] ينظر: تفسير المنار: ٤٠/١١، وتفسير المراغي: ٣٢/١١.

[٣] إرشاد العقل السليم: ١٠٥/٤ـ ١٠٦، وينظر: روح المعاني: ٢٩/٦.

[٤] ينظر: التحرير والتنوير: ٤٠٣٩/١١.

[٥] ينظر: تفسير الشعراوي: ٥٥١٩/٩.

[٦] ينظر: التحرير والتنوير: ٤٠/١١.

والاستبشار: هو الشعور بفرح البشرى أو استشعارها، الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتألق نورها[١].

إضافة إلى أن فيه التفاتا عن الغيبة تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور، وفيه زيادة تقرير بيعهم وإشعارا بكونه مغايرا لسائر البياعات، فإنه بيع للفاني بالباقي وكلا البدلين له سبحانه وتعالى.

وإنما قال سبحانه: ﴿ بِبَيۡعِكُمُ ﴾ مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة لأن المراد ترغيبهم في الجهاد الذي عبر عنه بالبيع، ولم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبله سبحانه لا من قبلهم والترغيب على ما قيل إنما يتم فيها هو من قبلهم[٢].

قال الزمخشري: «ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن منه وأبلغ»[٣].

وتأتي ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الصفقة التي انعقدت بين العبد وربه، وما فيها من معنى البعد إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو رتبته في الكمال، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البيع الذي أمروا بالاستبشار به وجعل ذلك كأنه الفوز العظيم نفسه، أو يجعل فوزا في نفسه.

فالجملة على الأول تذييل للآية الكريمة، وعلى الثاني لقوله تعالى ﴿ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ ﴾ تقرير لمضمونه[٤].

ومعنى الفوز: بلوغ الغاية المأمولة في عرف العقل الواعي، أو الظفر بالمطلوب العظيم[٥].

بيد أن هناك فوزا وفوزا عظيما، فالفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال، والفوز العظيم؛ هو أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه[٦].

---

(١) ينظر: تفسير المنار: ٤٠/١١، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ٤١٠/٦.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٠٦/٤، وروح البيان: ٥١٥/٣، وروح المعاني: ٢٩/٦، وفتحُ البيان: ٤٠٦/٥.

(٣) الكشاف: ٢٩٩/٢.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٠٦/٤، وروح المعاني: ٢٩/٦.

(٥) ينظر: فتحُ البيان: ٤٠٦/٥، تفسير الشعراوي: ٥٥٢١/٩.

(٦) ينظر: تفسير الشعراوي: ٥٥٢١/٩.

وفى هذا الأسلوب من التأكيد واستحقاق المجاهدين للثواب ما لا يخفى، إذ جعلهم مالكين معه ومبايعين له ومستحقين الثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده[١].

وعلى ذلك دارت رحى المعارك ومثل جيل الصحابة رضوان الله عليهم النموذج الفذ في تطبيق متطلبات الجهاد والشوق إلى ما عند الله، ولا يتسع المقام لذكر صور من تلك البطولات فعلى المرء أن يطلبها من مظانها وأن يستلذ بالاطلاع عليها ويجعل ذلك جزءاً من برنامجه التربوي حتى تعلو همته، وقد كانوا يعلمون أبناءهم مغازي الرسول (ﷺ) كما يعلمونهم السورة من القرآن.

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله، فهي سنة جارية لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها، فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت، سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه، والجنة كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة، فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك، ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله ينتصر إذا انتصر لإعلاء كلمته، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه، ويستشهد إذا استشهد في سبيله، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

إن هذا وحده لكسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة، فإذا أضيفت إلى ذلك كله الجنة فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال[٢].

إن آيات المقطع تفيد أن هيبة الأمة وقوتها ترتبطان ببقاء الروح الجهادية فيها، فإذا ضعفت وتخاذلت في مدافعة أعدائها فإنها تتعرض للغزوات الخارجية، ويطمع فيها المعتدون ويذيقونها المذلة والهوان في جوانب الحياة كافة.

وإن واقع الأمة في حاضرها يؤكد ذلك، ومما يؤسف له أن الأمة قد أسقطت كلمة الجهاد من قاموسها السياسي، فأذلها الله لموافقتها الغرب في مساواة كلمة الجهاد بالإرهاب.

وقبل أن أترك هذه الخصلة لابد أن أشير إلى أن للجهاد أحكاماً وضوابطاً ليس هذا مجال التفصيل فيها، كما أن له أخلاقاً تبين المجاهد الصادق من غيره، فمن أخلاق المجاهدين الرحمة والشفقة بالناس والأخذ بأيديهم إلى طريق الحق وليس من أخلاقهم التعالي والتكبر واحتقار جهد

---

[١] ينظر: تفسير المراغي: ٣٣/١١.

[٢] ينظر: في ظلال القرآن: ١٧١٨/٣.

الآخرين والنظر إليهم بعين الازدراء والسخرية، ولعل ما أشارت إليه الآية اللاحقة توضح خصال الصفوة المختارة لهذا الشأن العظيم.

ومما لاشك فيه فقد تناول النص الذي بعده تسع صفات لها صلة ذات تأهيل ذاتي لكيان من عقدت الصفقة الإلهية معهم على أن ثمة اختلاف بين المفسرين في كون تلك الصفات متصلة بها أم مستقلة بنفسها؟

هذا ما سأبينه مع اختيار الواقع منها والمطابق لها حسب السرد النصي في تحقيق المسألة والتي هي على قولين:

الأول: أن هذه الأوصاف متصلة بها جاءت على جهة الشرط والآيتان مرتبطتان فلا يدخل تحت المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف.

وبنو رأيهم على أن قوله ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هم التائبون، فيكون صفة مقطوعة للمدح، أو صفة للمؤمنين، أو بدلا من الضمير في ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ العائد على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

قال ابن عاشور: «أسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فكان أصلها الجر، ولكنها قطعت عن الوصفية وجعلت أخباراً لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع اهتماماً بهذه النعوت اهتماماً أخرجها عن الوصفية إلى الخبرية، ويسمى هذا الاستعمال نعتاً مقطوعاً، وما هو بنعت اصطلاحي ولكنه نعت في المعنى»[٢].

ومما ورد عن الحسن قوله فيها: (هذا عملهم وسيرهم في الرخاء، ثم لقوا العدو فصدقوا ما عاهدوا الله عليه)[٣].

وعن الضحاك أن رجلا سأله وقال ألا أحمل على المشركين فأقاتل حتى أقتل، فقال له: (ويلك أين الشرط التائبون العابدون ..)[٤].

---

[١] ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٤٧١، والكشاف: ٢٩٩/٢، وزاد المسير: ٣٠٣/٢، ومفاتيح الغيب: ١٦/ ١٥٧، والجامع لأحكام القرآن: ٢٧١/٨، والبحر المحيط: ١٠٦/٥-١٠٧، والدر المصون: ١٢٩/٦.

[٢] التحرير والتنوير: ٤٠/١١.

[٣] جامع البيان: ٥٠٨/١٤.

[٤] المصدر نفسه: ٥٠٠/١٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (هو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد، وإذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم).

وقال الربيع: (هذه أعمال قال فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيدا، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله)[١].

الثاني: أنها مستقلة بنفسها، لم يشترط فيها شيء سوى الإيمان، فيندرج تحت تلك المبايعة كل مؤمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات في هذه الآية الثانية أو بأكثرها[٢].

ومما استدلوا به على رأيهم أن قوله ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ مرفوع بالاستئناف لتمام الآية قبلها وانقطاع الكلام فحسن ذلك[٣].

وعليه فهو مبتدأ وخبره ﴿ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾، وما بعده خبر بعد خبر، أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال[٤].

وقد ذكر ابن عطية أن القول بغيره تحريج وتضييق، فالشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد، وأن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع: أنها أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة[٥].

وقول آخر في الاستقلال أن التائبين الموصوفون بهذه الأوصاف لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا إذا لم يقصدوا ترك الجهاد ولا العناد، لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض في الجهاد، فكأنه وعد الجنة لجميع المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات، كما قال: ﴿ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [النساء]، فإن كلا فيه عام، والحسنى بمعنى الجنة[٦].

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٤٦٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٨٨/٣، والجامع لأحكام القرآن: ٢٧١/٨، والبحر المحيط: ١٠٦/٥.

(٣) ينظر: معالم التنزيل: ٩٨/٤، ولباب التأويل: ١٥٢/٣.

(٤) ينظر: الكشاف: ٢٩٩/٢، والبحر المحيط: ١٠٦/٥، والدر المصون: ١٢٩/٦.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٨٨/٣.

(٦) ينظر: معالم التنزيل: ٩٩/٤، والكشاف: ٢٩٩/٢، وزاد المسير: ٣٠٣/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٧١/٨، والبحر المحيط: ١٠٦/٥، ولباب التأويل: ١٥٢/٣.

ويؤيده قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عطية: «هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز أي لما تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أمر أن يبشر سائر الناس ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار»[١].

وقال الطبري: «قال بعضهم: وبشر من فعل هذه الأفعال وإن لم يغزوا»[٢].

وبعد بيان القولين يتضح أن النص واقع بين الاستقلال والانفصال عن سابقه، وإمكان الجمع وإعمال كل منهما في مكانه ممكن.

فمعلوم أن النبوة والولاية والعلم درجات فكذلك الشهادة، وعليه فمن ذهب إلى القول بالاستقلال كان قوله خاصا بمن التحق للتوّ في ميدان القتال ولما يبلغ تلك المعاني والصفات، وقد ذكرت لنا السير والتاريخ أن أناسا دخلوا الإسلام ولم يركعوا ويسجدوا وتوجهوا إلى ساحة القتال فنالوا درجة الشهادة، ولا ينكر ما نال من منزلة لكن الموطن الذي نحن فيه ليس مداره ذلك إنما مداره في شان آخر.

ويدلل عليه نصوص منها قوله صلى الله عليه وسلم: {أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة} وذكر الشهيد منهم :{ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك}[٣]. وما ذاك إلا أنه ابتعد عن تلك الصفات.

وما ورد أيضا أن المقصود منها أنها خاصة بأولئك الذين تمثلت فيهم الصفات ولم يتح لهم الغزو، فهذا شيء حسن وهو مطلبنا قبل حصول القتال وهو ما ندعو إليه في حال السلم ليتهيأ بحاله لمواجهة العدو، وإذا ما تمثلت فيه الصفات فقد اعد نفسه لهذه المهمة وبالنتيجة فهي داخلة فيها ولكن لحين حصوله، وحاشا أن يكون من هذا حاله ثم إذا ما دعي إلى النصرة أن يتنحى جانبا اللهم إلا إذا كان من أهل الدعاوى، ولا إشكال فالموطن فيه دعوة لاختبار المتصفين بها حقيقة لا أوهاما وخيالا.

---

[١] المحرر الوجيز: ٣/٩٠، وينظر: الدر المصون: ٦/١٢٩، واللباب: ١٠/٢١٨.

[٢] جامع البيان: ١٤/٥٠٨.

[٣] سنن الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الرياء والسمعة: ٤/ ٥٩١ (٢٣٨٢) وقال الألباني: حديث صحيح.

وانه لا مشاحة فيهما فالأول في موطنه من المنازل، والآخر في مجال الإعداد للقتال وبهذا فلا تضارب بل هو داخل فيها دخولا أوليا دون أي إشكال.

أما الذين ذهبوا إلى القول بالاتصال وهو الأقرب إلى النص كما نص عليه جمهرة من المفسرين، فهو بلا شك شأن أهل الشأن ممن اتصفت فيهم هذه الصفات لتكوين دولة الإسلام والجماعة المسلمة والتاريخ شاهد عليه، وما أدل عليه إلا ما ورد في النص من ذكر الصفات من غير عاطف بينها وهو ما يشير إلى أنها جميعا بمنزلة صفة واحدة، وأنه لا تتحقق أية صفة منها إلا إذا تحققت جميعا، أو بمعنى آخر أن تحقيق أية صفة منها داعية لتحقيق الصفات كلها.

فالتائب إذا صحت توبته وحقق مضمونها كان عابدا، حامدا، سائحا، راكعا، ساجدا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، حافظا لحدود الله.

والعابد إذا عبد الله كما ينبغي أن يعبد كان تائبا، حامدا، سائحا، راكعا ساجدا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، حافظا لحدود الله.

وهكذا في كل صفة منها إذا تحلى المؤمن بواحدة منها، كانت الصفات الأخرى من حليته.

أضف إلى أن الأمة متى ما زرعت هذه القيم السامية في أبناء جيلها يكون لها السبق والحظوة بين الأمم، ومتى ما ضعفت وتنحت عنها ستلحظ تقهقرها وانحلالها وانكباب الأعداء عليها والواقع شاهد عليه.

إذن يفهم من ذلك أن ثمة صفات عالية علية لمن أراد أن يكون داخلا في هذه الصفقة الإلهية، فهي ليست بدعا من الكلام أو ضربا من الخيال، بل واقع فيه ثمن، وان الصفات هذه لا بد لها من مجابهة النفس للامتثال بها والحصول عليها في واقع السلم قبل الخوض في المعامع، ومن لم ينجح في السلم فهو بلا ريب لم يقاوم في حالة المواجهة والاحتدام ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

ومن جملة ما يؤيد القول ما نص عليه ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطف على جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفَ إنشاء على خبر، ومما حسَّنه أن المقصود من الخبر المعطوفِ عليه العمل به فأشبه الأمر، والمقصود من الأمر بتبشيرهم إبلاغُهم فكان المراد من

الجملتين معنيين خبريّ وإنشائي. فالمراد بالمؤمنين هم المؤمنون المعهودون من قوله: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) والبشارة تقدمت مراراً»[١].

وقال الخطيب الشربيني: «ذكر سبحانه وتعالى عقب هذه الصفات التسع قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنبيهاً على أن البشارة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾ لم تتناول إلا المؤمنين الموصفين بهذه الصفات التسع وحذف تعالى المبشر به للتعظيم فكأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الإفهام وتعبير الكلام»[٢].

وقال البقاعي: «وفي ابتداء الآيتين بالوصف المعشر بالرسوخ في الإيمان الذي هو الوصف المتمم للعشر وختمهما بمثله إشارة إلى أن هذه مائدة لا يخلس عليها طفيلي، وأن من عدا الراسخين في درجة الإهمال لا كلام معهم ولا التفات بوجه إليهم»[٣].

وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات[٤].

إن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال، فالذين باعوا هذه البيعة، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة، ذات صفات مميزة، منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم.

تلك هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته، بصفاتها ومميزاتها: توبة ترد العبد إلى الله، وتكفه عن الذنب، وتدفعه إلى العمل الصالح، وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته، وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله، وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق.

---

[١] التحرير والتنوير: ١١/٤٣.

[٢] السراج المنير: ١/٦٥٤.

[٣] نظم الدرر: ٣/٣٩٢.

[٤] ينظر: محاسن التأويل: ٥/٥١٢.

وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة، وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين، ويصونها من التهجم والانتهاك.

وعليه فالحياة ليست لهوا ولعبا، ولا أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا، ولا سلامة ذليلة، وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيص، إنما الحياة كفاح في سبيل الحق، وجهاد في سبيل الخير، وانتصار لإعلاء كلمة الله، أو استشهاد في سبيل الله ثم الجنة والرضوان.

وهكذا مضت سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته، قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقتل لأعداء الله الذين يحادون الله أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية، وبين الشريعة والطاغوت، والهدى والضلال[1].

المبحث الرابع
وراثة الأرض للصالحين

أخبر الله تعالى عما قضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة للأرض لهم، وان ذلك كائن مذكور فيما سلف يصدقه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

لكن ثمة اختلاف وقع بين المفسرين في مفهوم النص القرآني، وكان مدار الاختلاف في المعنى المراد من قوله تعالى ﴿ ٱلزَّبُورِ ﴾ أهو الكتاب المنزل على داود (عليه السلام) أم المقصود به ما يطلق على كل كتاب؟

والآمر ذاته أدى إلى الاختلاف في توجيه معنى ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ بناء على القول بأحد الأقوال في معنى الزبور، ثم اختلاف آخر في كون الأرض المورثة لعباد الله الصالحين أهي الأرض التي نحيا عليها أم الأرض التي في عالم الآخرة؟ وهو ما سيتضح عند سرد الأقوال فيما يأتي.

أما ما وقع من اختلاف في معنى الزبور فهي على ما يأتي:

أولا: الزبور هو في الأصل الكتاب، يقال: زبرت أي كتبت، وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور، وعلى القرآن أيضا، والمراد جنس الكتب

[1] ينظر: في ظلال القرآن: ٣/١٧١٤-١٧٢٠.

المنزلة، وعليه يكون المعنى المقصود من ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ اللوح المحفوظ الذي عند الله تعالى في السماء، وهو ما نص عليه سعيد بن جبير ومجاهد.

ثانيا: ان المراد به هنا كتاب داود (عليه السلام) خاصة وعليه يكون المعنى المقصود ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ هو التوراة المنزلة على موسى (عليه السلام)، وهو ما نص عليه ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة[١].

وذهب الطبري وجمهرة من المفسرين إلى القول بالأول «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك ما قاله سعيد بن جبير ومجاهد ومن قال بقولهما في ذلك، من أن معناه: ولقد كتبنا في الكتب من بعد أم الكتاب الذي كتب الله كل ما هو كائن فيه قبل خلق السماوات والأرض،..... وأن كل كتاب أنزله الله إلى نبي من أنبيائه، فهو ذكر، فإذ كان ذلك كذلك، فإن في إدخاله الألف واللام في الذكر، الدلالة البينة أنه معني به ذكر بعينه معلوم عند المخاطبين بالآية، ولو كان ذلك غير أم الكتاب التي ذكرنا لم تكن التوراة بأولى من أن تكون المعنية بذلك من صحف إبراهيم، فقد كان قبل زبور داود»[٢].

بينما نص آخرون على القول الثاني وحجتهم أن إطلاق الزبور على كتاب داود (عليه السلام) أظهر وأكثر استعمالا، ولأن الزبور مفرد فدلالته على الواحد أرجح من دلالته على الجمع[٣].

وذكر ابن عاشور ما معناه أن هذا الوعد في الزبور باللغة العبرية هكذا: ((صديقين يرشون أرص)) بشين معجمة في ((يرشون)) وبصاد مهملة في ((أرص))، أي الصديقون يرثون الأرض،

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٥٤٨، ومعاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٤٠٧، وإعراب القرآن للنحاس: ٣/ ٥٩، والنكت والعيون: ٣/ ٤٧٥، وتفسير القرآن للسمعاني: ٣/٤١٢-٤١٣، والكشاف: ٣/ ١٣٩، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٩٢، والتسهيل: ٢/ ٣١، وتفسير القرآن العظيم: ٥/ ٣٨٤- ٣٨٥، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٨٨، وأنوار التنزيل: ٤/ ٦٢، ومحاسن التأويل: ٢٢٦/٧.

(٢) جامع البيان: ١٨/ ٥٤٨، وينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٤٠٧، وإعراب القرآن للنَّحَّاس: ٣/ ٥٩، والنكت والعيون: ٣/ ٤٧٥، ومفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٩٢، وتفسير القرآن العظيم: ٥/ ٣٨٤- ٣٨٥.

(٣) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٣/٤١٢-٤١٣، والكشاف: ٣/ ١٣٩، والتسهيل: ٢/ ٣١، ونظم الدرر: ٥/ ١١٧، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٨٨، وأنوار التنزيل: ٤/ ٦٢، ومحاسن التأويل: ٢٢٦/٧.

والمقصود: الشهادة على هذا الوعد من الكتب السالفة وذلك قبل أن يجيء مثل هذا الوعد في القرآن، ومعنى من بعد الذكر أن ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمة[١].

وعلى كلا القولين يمكن القول ان المعنى: ولقد كتب الله عنده، وأثبت في قديم علمه الأزلي الذي لا ينسى، ثم أثبت في الكتب السماوية من بعد ذلك أو لقد كتبنا في كتاب داود من بعد ما كتبنا في التوراة أن الأرض يرثها عبادي الصالحون[٢].

ومنه يفهم أن النص مثبت في الكتب السابقة بشكل عام أو في زبور داود (عليه السلام) بشكل خاص، فالمراد أن القرآن نص على أحالته المتوافرة كما في صريح النص القرآني.

أما ما وقع الاختلاف بكون الأرض المورثة لعباد الله الصالحين في الدنيا أم في الآخرة فهي على قولين:

أحدهما: انها أرض الجنة التي يورثها الله يوم القيامة لعباده الصالحين، وهذا ما ذهب إليه مجاهد، سعيد بن جبير وعكرمة والسدي.

واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ ﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ ﴾ [المؤمنون].

ثانيهما: أن المراد بالأرض أرض العدو، يورثها الله المؤمنين في الدنيا، وهو ما ذهب إليه ابن عباس وأبو الدرداء (رضي الله عنهما)[٣].

واستدلوا بآيات عدة منها قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ... ١٣٧ ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔواْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧ ﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ... ٥٥ ﴾ [النور]، وقوله

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ١٦٢/١٧.

[٢] ينظر: فتح القدير: ٣/ ٥٠٨، وفتح البيان: ٨/ ٣٧٩.

[٣] ينظر: جامع البيان: ٥٤٩/١٨ ـ ٥٥٠، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٨/ ٢٤٧١، وإعراب القرآن النَّحَّاس: ٣/ ٥٩، وتفسير القرآن للسمعاني: ٤١٢/٣ـ٤١٣، والنكت والعيون: ٣/ ٤٧٥، ومعالم التنزيل: ٣٥٨/٥-٣٥٩، والمحرر الوجيز: ١٠٣/٤، والجواهر الحسان: ٤/ ١٠٤، وأضواء البيان: ٢٥٠/٤.

تعـــالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم].

يفهم مما سبق أن الأمر محسوم بين هذيين القولين ولابد من إيضاح لهما ليتسنى معرفة إدراك موضع النص في معناه المتأول فيه.

فمن الأول أن المراد منه انه تعالى سيورث الجنة من كان صالحا من عباده كما هو مؤكد في ضوء ما سبق من نصوص قرآنية، وان الأرض في الدنيا قد يرثها الصالحون وغيرهم، أما ارض الجنة فقد خلقت لهم وغيرهم إذا حصل معهم فيها فعلى وجه التبع، فضلا عن أنها مذكورة بعد الإعادة من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء]، وبعد الإعادة لا تكون وصفها إلا الجنة[١].

كذلك، حينما خلق الله تعالى الخلق أعد الجنة لتسع المؤمنين من بني آدم، وأعد النار لتسع الكافرين منهم، فليس في المسألة زحام على أي حال، فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار ظلت أماكن أهل النار في الجنة خالية فيورثها الله لأهل الجنة ويقسمها بينهم، ويفسح لهم أماكنهم التي حرم منها أهل الكفر[٢].

وأما على المعنى الثاني فإن الأرض التي ذكرت هي الأرض التي نعرفها، وهو ما أشار إليه الزجاج: «والأرض إذا ذكرت فهي دليلة على الأرض التي نعرفها، ودليل هذا القول قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ ..... ١٣٧﴾ [الأعراف]»[٣].

وفي حديث ثوبان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): {إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها} [٤].

قال ابن عاشور: «إن في إطلاق اسم الأرض ما يصلح لإرادة أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح. وقد صدق الله وعده في الحالين وعلى الاحتمالين»[٥].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٩٢، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٤٩، واللباب: ٦١٨/١٣-٦١٩، وروح المعاني: ٩٨/٩.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: ٩٦٦٧/١٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٤٠٧.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: ٤/ ٢٢١٥ (٢٨٨٩).

(٥) التحرير والتنوير: /١٦٢.

«ولأن النص قد ورد في زبور داود بأن الأرض يرثها الصالحون أن الأرض هنا على الإطلاق في مشارق الأرض ومغاربها.... وفي الآية ثناء عليهم، وإخبار بظهور غيب مصداقه في الوجود إذ فتح الله لهذه الأمة مشارق الأرض ومغاربها»[١].

والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد (ﷺ) بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين[٢].

والمتتبع لسورة الأنبياء يجد ان الله تعالى لما ذكر صدقه في الوعد وسهولة الأفعال عليه، وكان من محط كثير مما مضى أن من فعل ما لا يرضي الله غيّر عليه، كائناً من كان، ومن فعل ما أمره به نصره وأيده ولو بعد حين، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء] عاطفاً على قوله: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء]، وما عطف عليه من أشباهه مذكراً بما وعد على لسان داود (عليه السلام) في الزبور.

فضلا عن أن شاهد ذلك من قصص هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في بعض أخبارهم دلالة على أن العاقبة لمن أرضانا ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ..... ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم]، وغيرها من النصوص المذكورة آنفا.

وفي هذا إشارة بالبشارة بأنه تعالى يورث هذه الأمة على ضعفها ما أورث داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام على ما أعطاهما من القوة من إلانة الحديد والريح والحيوانات كلها من الجن والإنس والوحش والطير وغير ذلك[٣].

والناظر إلى داود (عليه السلام) يرى أن عناصر صلاحيته التي ذكرها الله تعالى هي: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]، إذ كان عابدا يتغنى بتمجيد الله والتسبيح بحمده، وكانت العاطفة الحارة تشيع في غنائه فيهبط لها الطير، وتتردد أصداؤها في الجبال، ولكنه لم يكتف بهذه الروحانية، فلقد ضمَّ إليها مهارة صناعية عظيمة،

---

[١] التسهيل: ٢/ ٣١.

[٢] ينظر: فتح القدير: ٣/ ٥٠٨، وفتح البيان: ٨/ ٣٧٩.

[٣] ينظر: نظم الدرر: ٥/ ١١٧، والسراج المنير: ٢/ ٥٣٣.

ووجّهَه الوحي إلى إجادة الصناعة التي لانت له، وإحكام نسج الدروع التي كانت قديماً من أدوات القتال، وصنع الأسلحة للدفاع عن دينه، ووصفه القرآن بأنه كان صاحب توبة، وصاحب دولة، وأرشده إلى أن يحكم بين الناس بالحق، وألا يتبع الهوى كما بشره بحسن المآب لسرعة استغفاره، وحسن سجوده، كل ذلك كانت عناصر للصلاح لتجمع اكتمالاً نفسياً وصناعياً وسياسياً لتكون عناصر حضارة مؤمنة لا يجوز أن تنساها الأمم(١).

والمقصود من هذه الحال الإيماء إلى أن الوعد المتحدث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة، وهو الوعد الذي ذكر في قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ..... ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة]، وأنه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من الملك والسلطان لأن ذلك وعد كان قبل داود (عليه السلام). فإن ملك داود أحد مظاهره، بل المراد الإيماء إلى أنه وعد وعده الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل وليسوا إلا المسلمين الذين صدقهم الله وعده فملكوا الأرض ببركة رسولهم (ﷺ) وأصحابه واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيهم (ﷺ) في الحديث المتقدم آنفا.

وقد ورثوا هذا الميراث العظيم وتركوه للأمة بعدهم، فهم فيه أطوار كشأن مختلف أحوال الرشد والسفه في التصرف في مواريث الأسلاف(٢).

ويبدو أنه لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا، لأنه لم يرد نص يخصص أحد المعنيين(٣).

وقد سار على هذا التعميم الإمام ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية: «يقول الله تعالى مخبرا عما قضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]، وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية، فهو كائن لا محالة»(٤).

---

(١) ينظر: الغزو الثقافي: ١٣٨

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦٣/١٧ ـ١٦٤.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ٢٥٨/٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٣٨٤.

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، وتنميتها وتحويرها، ووضع الله للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه في هذه الأرض، منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح، وليست عمارة الأرض فقط ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، ليبلغ كماله المقدر له في هذه الحياة، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته فيهم(١).

والمتفحص للنص يجد أن الله تعالى قد خاطب بهذه الآية المؤمنين بمكة، وهم في قلة عَدد وعُدد، ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور، وهي مدنية، بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

وقد حقق الله لهم هذا الوعد: ففتح لهم الفتوح، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومد ملكهم في الشرق والغرب، وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وترأسوا ذلك الملك العريض.

ثم إن تعليق الوعد بالوصف وهو الصلاح وعد عام لتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها ولا محالة من هذا الوعد، واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضا تقييده بأهله، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدها ما ورثت(٢).

ويرد هنا إشكال: إن أرض الدنيا يستولي عليها الصالحون وغيرهم، لذا فالقول بأن الأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة أسلم؛ فيجب تأويل الآية بها.

والجواب:

أن هذا التأويل إنما يحتاج إليه لو كانت الآية هكذا: **[إن الأرض لا يرثها إلا عبادي الصالحون]** بطريق الحصر فيهم، أما لما كانت لا حصر فيها فلا حاجة إلى هذا التأويل، بل في

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٩٩-٢٤٠٠.

(٢) ينظر: مجالس التذكير: ٣٤٧.

لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح، وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]، فيرثها الصالحون نعمة، ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير[١].

والله يُمكنُ الصالح الذي يعمرها ولو كان كافرا؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]، فمن أتقن النواحي المادية الدنيوية أخذها وترف بها في الدينا، ومن أتقن الصلاح الديني والخلقي والقيمي فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة، فهما شقان صلاح مادي دنيوي، وصلاح معنوي أخروي، ولكل نتاجه[٢].

فلو أن قوما غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنوا من سيرتهم صورا تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون لأن تلك الأعمال صارت أسبابا وسننا تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سننا وقوانين عمرانية سوى أنهم لسوء معاملة ربهم بجحوده أو بالإشراك به أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد، وخير شاهد ما نراه أن القادة الأوربيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامت أمورهم[٣].

ومن هنا استلهم بعض الباحثين مبدأ اجتماعيا ينطوي على تقرير كون التمكن في الأرض هو من حظ كل شخص أو أمة صالحة سالكة طريق الحق والعدل والخير والتعاون سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ويستدلون على ذلك بواقع الدنيا من حيث تمكن كثير من الأفراد والأمم من مسلمين وغيرهم في الأرض ثروة وطمأنينة وسعادة وحكما وسلطانا حينما يكونون متصفين بذلك، وقد لا يخلو

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٣٤٩.

[٢] ينظر: تفسير الشعراوي: ٩٦٦٧/١٦ـ ٩٦٦٨.

[٣] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨٤/١٨ـ ٢٨٥.

هذا من وجاهة متساوقة فعلا مع واقع الحياة ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود].

على أن جملة ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء]، قد تسوغ القول إن المقصود هنا هم المخلصون لله تعالى، علما أنها أتت نكرة، فلو أريد بهم القوم العابدون الذين هم الصالحون في رأيهم لما كان لتجريد قوم عابدين من أداة التعريف معنى واضح, ومعاذ الله أن يكون في القرآن تعبير ليس مقصودًا لذاته, وليست صيغته مرادة في دلالته، وقد حقق الله لهم وعده فكانوا ورثة الأرض وحكامها في بعض حقبهم مما كان معروفا من مشارق الأرض ومغاربها، فلا تعارض مع ذلك بين هذا وبين الحكمة الاجتماعية التي تحتمل أن تلهمها الجملة.

وفي القرآن آيات فيها إقرار بذلك الواقع إيذان بأن الله أهلك بعضهم فورا أو إنه إنما يؤخرهم إلى أجل ثم يأخذهم، ويكون أخذه لهم أليما شديدا أو إنه إنما يملي لهم إملاء وتنديدا بالذين يظنون أن ما هم فيه حظوة من الله وإنذارات قارعة لهم بالعذاب والبلاء في الدنيا والآخرة ووعد بنصر المؤمنين والصالحين، والجملة بعد تنطوي على تقرير كون العاقبة والنصر وإرث الأرض في النهاية هي لهؤلاء مهما كان للأولين من نجاح وتمكن[1].

إذن فما فائدة تخصيص **(الصالحين)** بالذكر في الآية؟ والجواب على ذلك من وجوه:

أولا: إن هذه الآية كانت خطابا لأول الناس وهم الصحابة بمكة، وهم الصالحون في الأرض، ليعلموا ما وعدهم الله به، وليعلموا أن قوة الباطل إلى ضعف وأن ضعف الحق إلى قوة.

ثانيا: إن من شأن الصالحين أن يكونوا قليلين لا سيما أول أمرهم، فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد، ليزدادوا إيمانا وقوة وثباتا.

ثالثا: معلوم أن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعدة غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية، وما ينشأ عنهما من استقامة، لا يحسبون لذلك حسابا؛ فيحتاجون إلى العلم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد، وإن كانوا قلة في الناس ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة][2].

ويمكن الإشارة إلى أمور أربعة يكمن فيها صلاح الأمة في الوراثة وهي على ما يأتي:

---

[1] ينظر: التفسير الحديث: ٥/٢٩٦ـ٢٩٧.

[2] ينظر: مجالس التذكير: ٣٤٩.

١) أن يكون قادتها علماء مفكرين، وساستها حكماء عادلين، بعيدين عن الجور والظلم والمحاباة، يأخذون بيد المظلوم وينصفونه من الظالم، ويعملون لخير الأمة وسعادتها، ويواصلون ليلهم بنهارهم في كل ما يرفع من شأنها، ويسمو بها على الأمم.

٢) أن يكون لها جيش منظم يحمى حريمها، ويدافع عنها إذا جدّ الجدّ، ولن يكون كذلك إلا إذا كان فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون، ولديه من السلاح وعدد الحرب ما يكشف عنه العلم من وسائل الدفاع، من طائرات وغواصات وسفن حربية وآلات للهدم والتدمير، وجند حذقوا فنون الحرب بأساليبها المختلفة.

٣) أن يقوم أبناء الحرف المختلفة، من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضي، وكل طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى وتعاونها لخير الجميع، وتقوم بما يجب نحوها من المساعدة فيما يكفل نجاح الأعمال.

٤) أن تنظّم هذه الطوائف أعمالها بحيث تتوزع هذه المهن بين الأفراد بحسب حاجة الأمة إليها حتى لا تمد يدها إلى غيرها لمعونتها، ويكون في كل طائفة جماعة مبرّزون، يفكرون فيما يرقى شئون الطائفة، بحيث تنافس أمثالها في الأمم الأخرى أو تفوقها، بما أوتيت من حسن التدبير والتصرف[١].

لذا ينبغي على المسلمين، أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم، وزال ملكهم، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم إلى آخر ما تراه[٢].

وهذا حكم أيدته التجارب في سائر العصور لدى جميع الدول، فما من أمة تهاونت في هذه الأمور أو في شيء منها إلا حكم عليها بالفناء والزوال، وتواريخهم تدل على صدق ما نقول.

فعلى المسلمين قاطبة أن يصدعوا بما أمروا به في هذا الكتاب، وليعلموا أنه متى ذاعت هذه الآراء في الأمة، قامت كلها على قلب رجل واحد، في تنظيم شؤونها، وتربية أبنائها تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنساني الجديد[٣].

---

[١] ينظر: تفسير المراغي: ١٧/٧٦ـ٧٧، وحدائق الروح والريحان: ١٨/١٩٩.

[٢] ينظر: تفسير المنار: ٩/٤٨٣.

[٣] ينظر: تفسير المراغي: ١٧/٧٧.

المبحث الخامس
مجموعة الأحكام المشرعة لبني إسرائيل

لا ريب أن هناك أموراً مشتركة في التشريعات بين الإسلام والديانات الأخرى، فمصدر الديانات كلها من عند الله عن طريق الوحي إلى الرسل والأنبياء، ورغم أن الديانات السابقة أصابها التحريف والزيادة والنقصان إلا أنه بقي منها بعض الأمور التي توافق القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة].

ولا بد قبل البدء في محتواه ابحث عن سبب ومناسبة ورود النص لا سيما أن العطف دليل المتعلق فيه، والمشهد له متعلق سابق ولاحق والأسلوب هذا من الأساليب المساعدة على فهم النص القرآني.

وقبل الخوض في معناه اذكر ما سبقه من نص وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة]، وبما أن الروايات فيه كثر والمعنى واحد اقتصر على رواية البراء بن عازب (ﷺ) إذ قال: {مر على النبي (ﷺ) بيهودي محمم مجلود ـ مسود الوجه بالفحم ـ، فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد من زنى؟ قالوا: نعم! فدعا رجلا من علمائهم فقال: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا ولولا أنك أنشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حده في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الوضيع أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع جميعا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله (ﷺ): اللهم إني أول من أحيى أمرك إذ أماتوه! فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ ... ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]، يقول: ائتوا محمدا (ﷺ)، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة]}[١]

وتباعا أسوق ما نزل في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة]؛ فانه لما رأت قريظة النبي (ﷺ) قد حكم بالرجم، وكانوا يخفونه في كتابهم، نهضت قريظة فقالوا: يا محمد، اقض بيننا وبين إخواننا بني النضير وكان بينهم دم قبل قدوم النبي (ﷺ)، وكان بنو النضير يتعززون على بني قريظة، ودياتهم على أنصاف ديات النضير، وكانت الدية من وسوق التمر: أربعين ومئة وسق لبني النضير، وسبعين وسقا لبني قريظة فقال: دم القرظي وفاء من دم النضيري! فغضب بنو النضير وقالوا: لا نطيعك في الرجم، ولكن نأخذ بحدودنا التي كنا عليها! فنزلت[٢].

وعن ابن عباس قال: (إن بني إسرائيل لم تجعل لهم دية فيما كتب الله لموسى في التوراة من نفس قتلت، أو جرح، أو سن، أو عين، أو أنف. إنما هو القصاص، أو العفو)[٣].

وعنه أيضا: (أن بني النضير كان لهم شرف على بني قريظة، وكانت جراحاتهم على النصف، فحملهم على الحق، وجعل دم القرظي والنضيري سواء، فقال كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف: لا نرضى بحكمك، لأنك تريد أن تصغرنا بعداوتك)[٤].

قال ابن عاشور: «عطفت جملة ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ على جملة ﴿ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ ومناسبة عطف هذا الحكم على ما تقدّم أنّهم غيّروا أحكام القصاص كما غيّروا أحكام حدّ الزنا، ففاضلوا بين القتلى والجرحى»[٥].

قال الطبري: «وهذا إخبار من الله تعالى ذكره لنبيه محمد (ﷺ) عن اليهود وتعزية منه له عن كفر من كفر منهم به بعد إقراره بنبوته، وإدباره عنه بعد إقباله وتعريف منه له جراءتهم قديما وحديثا على ربهم وعلى رسل ربهم، وتقدمهم على كتاب الله بالتحريف والتبديل.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى: ٣/ ١٣٢٧ (١٧٠٠).

(٢) جامع البيان: ٣٥٩/١٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣٦١/١٠.

(٤) بحر العلوم: ٤١٩/١ ـ٤٢٠.

(٥) التحرير والتنوير: ٢١٣/٦.

يقول تعالى ذكره لـه: وكيف يرضـى هؤلاء اليهود، يـا محمـد، بحكمك، إذا جـاءوا يحكمونـك وعندهم التوراة التي يقرون بها أنها كتابي ووحيي إلى رسولي موسى (ﷺ)، فيها حكمي بالرجم على الزناة المحصنين، وقضائي بينهم أن من قتل نفسا ظلما فهو بها قود، ومن فقأ عينا بغير حق فعينه بها مفقوءة قصاصا، ومن جدع أنفا فأنفه به مجدوع، ومن قلع سنا فسنه بها مقلوعة، ومن جرح غيره جرحا فهو مقتص منه مثل الجرح الذي جرحه؟ ثم هم مع الحكم الذي عندهم في التوراة من أحكامي، يتولون عنه ويتركون العمل به، يقول: فهم بترك حكمك، وبسخط قضائك بينهم، أحرى وأولى»[١].

والمعنى أنه تعالى بين في التوراة أن حكم الزاني المحصن هو الرجم، واليهود غيروه وبدلوه، وبين في هذه الآية في التوراة أيضا أن النفس بالنفس، وهؤلاء اليهود غيروا هذا الحكم أيضا، ففضلوا بني النضير على بني قريظة، وخصصوا إيجاب القود ببني قريظة دون بني النضير، فهذا هو وجه النظم من الآية[٢].

قال ابن عطية: «وفي هذه الآية بيان لفساد فعل بني إسرائيل في تعزر بعضهم على بعض وكون بني النضير على الضعف في الدية من بني قريظة أو على أن لا يقاد بينهم بل يقنع بالدية، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية وأعلم أنهم خالفوا كتابهم»[٣].

وأما المتعلق بما بعد النص الذي ذكرناه فهو المتمثل في الآيات من قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

والمتبادر أن القرآن جاء ليؤيد ما كان قبله من كتب الله ويتطابق معها ويكون على ما في أيدي أهل الكتاب منها الضابط والمرجع والرقيب، فما جاء في الكتب المتداولة في أيديهم المنسوبة إلى الله من أسس ومبادئ وتلقينات مطابقا لما جاء في القرآن من ذلك أو غير متناقض معه فيجوز أن تكون

---

(١) جامع البيان: ٣٥٩/١٠.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٦٨/١٣.

(٣) المحرر الوجيز: ١٩٧/٢.

نسبته إلى الله تعالى صحيحة، وما جاء فيه ولم يكن فيها من ذلك يكون هو الحق، وهذا التوجيه مؤيد بما جاء في الآيتين من السورة نفسها ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة][(١)].

والواضح أنه تعالى لما ذكر التوراة التي يحكم بها النبيون، ذكر أنه قفاهم بعيسى (عليه السلام) تنبيها على أنه من جملة الأنبياء، وتنويها باسمه، وتنزيها له عما يدعيه اليهود فيه، وأنه من جملة مصدقي التوراة، والدلالة منه على نبوته ظاهرة.

ولما كانت أشد وجوه المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى ذلك، أعاد الله ذكر الهدى تقريرا وبيانا لنبوة محمد (ﷺ)، ووصفه بالموعظة لاشتماله على نصائح وزواجر بليغة، وخصصها بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بها[(٢)].

قال البقاعي: «ولما كانت هذه الآيات كلها مع ما فيها من الأسرار ناقضة أيضا لما ادعوا من البنوة بما ارتكبوه من الذنوب من تحريف كلام الله وسماع الكذب وأكل السحت والإعراض عن أحكام التوراة والحكم بغير حكم الله، أتبعها ما أتى به عيسى (عليه السلام) الذي ادعى فيه النصارى النبوة الحقيقية والشركة في الإلهية، وقد أتى بتصديق التوراة في الشهادة على من خالفها من اليهود»[(٣)].

ثم إنه تعالى لما ذكر أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور، ولم يذكر من أنزلها عليه؛ للمعرفة أنها نزلت على موسى، ثم ذكر عيسى وأنه آتاه الإنجيل، فذكره ليقروا أنه من جملة الأنبياء، إذ اليهود تنكر نبوته، وإذا أنكرته أنكرت كتابه، فنص تعالى عليه وعلى كتابه، ثم ذكر إنزال القرآن على رسول الله (ﷺ)، فذكر الكتاب، ومن أنزله مقررا لنبوته وكتابه، لأن الطائفتين ينكرون نبوته وكتابه[(٤)].

أضف إلى أن العدول عن ذكر القرآن وتسميته بالكتاب، إشارة إلى أنه الأصل الذي ترجع إليه الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء من قبل، والتي هي جميعها كتاب واحد، وعليه فالكتاب

---

(١) ينظر: التفسير الحديث: ١٤٩/٩.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٥١٠/٣ ـ٥١١.

(٣) نظم الدرر: ٤٦٦/٢.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٥١٢/٣.

الأول هو القرآن، والذي هو مستول عليها، ومشتمل على أصولها، التي تنضبط عليه، وترجع عند تأويلها إليه، والثاني هو جميع الكتب السابقة[١].

وعن واثلة بن الأسقع (ﷺ)، أن النبي (ﷺ) قال: {أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل}[٢].

قال البقاعي: «ولما ذكر سبحانه الكتابين، ذكر ختامهما وتمامهما، وهو ما أنزل إلى هذا النبي الأمي من الفرقان لإشهاده على جميع الكتب التي قبله، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي خاصة ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي الكامل في جمعه لكل ما يطلب منه وهو القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾أي الكامل الذي لا يحتاج إلى شيء يتمه، ثم مدحه بمدح الأنبياء الذين تقدموه فقال: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

ولما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالشيء الواحد، عبر بالمفرد لإفادته ما يفيد الجمع وزيادة دلالة على ذلك فقال: ﴿ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي الذي جاء به الأنبياء من قبل ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ أي شاهدا حفيظا مصدقا وأمينا رقيبا عليه على كل كتاب تقدمه»[٣].

وقال الرازي: «إنما كان القرآن مهيمنا على الكتب لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق باقية أبدا، فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبدا»[٤].

فالقرآن بذلك صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم ينسخ، وناسخا لما خالفه منها، ورقيبا عليها وحافظا لما فيها من أصول الشرائع، وغالبا لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ، ومؤتمنا عليها لكونه مشتملا على ما هو معمول به منها وما هو متروك[٥].

قال ابن عاشور: «جالت الآيات المتقدّمة جولة في ذكر إنزال التّوراة والإنجيل وآبت منها إلى المقصود وهو إنزال القرآن؛ فكان كردّ العجز على الصّدر لقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ ليبيّن أنّ القرآن جاء نسخاً لما قبله، وأنّ مؤاخذة اليهود على ترك العمل بالتّوراة

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٣/١١٠٨- ١١٠٩.

(٢) مسند الإمام احمد: ٢٨/١٨٨ (١٦٩٨٢)، وقال الارنؤوط: إسناده حسن.

(٣) نظم الدرر: ٢/٤٧٦ - ٤٧٧.

(٤) مفاتيح الغيب:١٣/٣٧١.

(٥) ينظر: فتح القدير: ٢/٥٥، وفتحُ البيان: ٣/٤٤٤، وروح المعاني: ٣/٣٢٠.

والإنجيل مؤاخذة لهم بعملهم قبل مجيء الإسلام، وليعلمهم أنّهم لا يطمعون من محمّد (ﷺ) بأن يحكم بينهم بغير ما شرعه الله في الإسلام، فوقْعُ قوله﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ إتماماً لترتيب نزول الكُتب السماويّة، فجاءت الآيات كلّها منتظمة متناسقة على أبدع وجه»[١].

يفهم مما سبق أن ثمة التقاء جسور واضحة بين القرآن وما تقدمه من الكتب كالتوراة والإنجيل لأن هذه الكتب وصفت كلها بأنها هدى ونور، ونواحي الالتقاء هي في أصول الاعتقاد كتوحيد الإله وربوبيته وإثبات النبوة والمعاد، وفي أصول الأحكام التشريعية كعبادة الله تعالى والصوم والصلاة والزكاة، وأصول الأخلاق والفضائل كالأمانة والصدق وتحريم الزنى والسرقة وجرائم العرض، وذلك كله في التوراة والإنجيل الأصليين المنزلين على موسى وعيسى عليهما السلام.

إلا أن القرآن وإن جاء مصدقا ومؤيدا لتلك الكتب في أصول الشرع والدين المذكورة، إلا أنه حاكم عليها ومهيمن على ما جاء فيها، فلا يعمل بحكم فيهما عارض القرآن، مما يوجب الإيمان بالقرآن وبالنبي محمد (ﷺ) وبرسالته التي ختمت بها الرسالات السماوية[٢].

وكيفما قرأت وفسرت لا تجد الآية تدل على أن الله تعالى يأمر النصارى في القرآن بالحكم بالإنجيل، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين، ولو فرضنا أنه أمرهم بذلك بعبارة أخرى لتعين أن يكون الأمر للتعجيز وإقامة الحجة عليهم; فإنهم لا يستطيعون العمل بالإنجيل، ولن يستطيعوه[٣].

وعودة لذي بدء على ما أردنا الوقوف عنده من النص المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ بعد أن بينا المناسبة والنزول واتضح لنا ما ذكرناه آنفا.

وابتداء فقد وردت نصوص من التوراة في القصاص تدل على وجود هذا النص مع ما حصل لها من تحريف.

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/٢٢٠.

(٢) ينظر: التفسير المنير: ٢/٢٢٠.

(٣) ينظر: المنار: ٦/٣٣٢.

منها ما جاء في الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج: ((من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا، وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس، وعينا بعين، وسنا بسن، ويدا بيد، ورجلا برجل، وكيا بكى، وجرحا بجرح، ورضا برض)).

ومنها أيضا ما جاء في الفصل الرابع والعشرين من سفر اللاويين: ((وإذا أمات أحد إنسانا فإنه يقتل، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس، وإذا أحدث إنسان في قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل به، كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن، كما أحدث عيبا في الإنسان كذلك يحدث فيه)).

قال ابن عاشور: «الكَتْبُ هنا مجاز في التّشريع والفرض بقرينة تعديته بحرف (على)، أي أوجبنا عليهم فيها، أي في التّوراة مضمونَ ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾، وهذا الحكم مسطور في التّوراة أيضاً، كما اقتضت تعديّة فعل ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ بحرف (في) فهو من استعمال اللّفظ في حقيقته ومجازه.

وفي هذا إشارة إلى أنّ هذا الحكم لا يستطاع جحده لأنّه مكتوب والكتابة تزيد الكلام توثّقاً»[١].

والأمر خالد غير قابل للمحو في أي عصر من العصور، فالباء هنا للمقابلة، كمقابلة بين الثمن والبيع، فكما أن المقابلة تكون في البيوع تكون في النفوس إذا اعتدت، وتصير نفس الجاني كأنها شيء من الأشياء وهو الذي أهانها.

فضلا عن أن المقابلات التي جاءت في الآية، إنما هي لبيان اتحاد الأنفس ولنفي ما كان عليه أهل الجاهلية من تفرقة بين النفوس[٢].

والمعنى أن الله تعالى كتب فرضا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا فيجب في ذلك أخذ نفسه ثم هذه الأعضاء المذكورة كذلك ثم استمر هذا الحكم في هذه الأمة بما علم من شرع النبي (ﷺ) وأحكامه، ومضى عليه إجماع الناس[٣].

قال ابن حيان: «فرض الله على بني إسرائيل أن من قتل نفسا بحد أخذ نفسه، ثم هذه الأعضاء كذلك، وهذا الحكم معمول به في ملتنا إجماعا، والجمهور على أن قوله أن النفس بالنفس عموم يراد به الخصوص في المتماثلين»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢١٣/٦.

(٢) ينظر: زهرة التفاسير: ٢٢٠٥/١.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ١٩٦/٢.

(٤) البحر المحيط: ٥٠٧/٣.

ولفظ الجروح عام، والمراد به الخصوص، وهو ما يمكن فيه القصاص، ومدلول: والجروح قصاص، يقتضي أن يكون الجرح بمثله، فإن لم يكن بمثله فليس بقصاص، وما عدا النفس هو من الجراحات التي أشار إليها بقوله: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ، لكنه فصل أول الآية وأجمل آخرها ليتناول ما نص عليه وما لم ينص، فيحصل العموم، وكتب الفقه هي محل استيعاب الكلام على هذه المعاني[١].

قال ابن كثير: «هذه الآية مما وبخت به اليهود أيضا وقرعت عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وقد خالفوا حكم ذلك عمدا وعنادا فأقادوا النضري من القرظي، ولم يقيدوا القرظي من النضري وعدلوا إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار»[٢].

يفهم من هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شريعة الله انه إعلان حقيقي كامل لميلاد الإنسان الذي يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد أولا، وفي المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة ثانيا.

وقد تخلفت شرائع البشر الوضعية عشرات من القرون حتى ارتقت إلى بعض مستواه من ناحية النظريات القانونية، وإن ظلت دون هذا المستوى من ناحية التطبيق العملي.

ولقد انجرف اليهود الذين ورد هذا المبدأ في توراتهم عنه لا فيما بينهم وبين الناس فحسب، إذ كانوا يقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران] بل فيما بين أنفسهم، على نحو ما رأينا فيما كان بين بني قريظة الذليلة، وبني النضير العزيزة حتى جاءهم رسول الله (ﷺ) فردهم إلى شريعة المساواة ورفع جباه الأذلاء منهم فساواها بجباه الأعزاء.

والقصاص على هذا الأساس فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان هو القضاء الذي تستريح إليه الفطرة والذي يذهب بحزازات النفوس، وجراحات القلوب، والذي يسكن فورات الثأر الجامحة، التي يقودها الغضب الأعمى وحمية الجاهلية، وقد يقبل بعضهم الدية في القتل والتعويض في الجراحات، ولكن بعض النفوس لا يشفيها إلا القصاص[٣].

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٥٠٩/٣، والجواهر الحسان: ٣٨٨/٢-٣٨٩، فتحُ البيان: ٤٣٣/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٠٩/٣.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨٩٩/٢.

ومما أثاره البعض من الذين لايدركون الأمور على وجهها أن القصاص في الأطراف يكثر المشوهين، ويقلل المنافع، ويضعف إنتاج الأمة!

والجواب عنه: أن القصاص في الأطراف من شأنه أن يقلل التشويه ويكثر النفع، لأنه إذا علم المعتدى أنه سيقطع طرفه إن قطع طرف غيره، وأنه ستفقأ عينه إذا فقأ عين غيره، فإنه سيكف عن الاعتداء، وبذلك تصان الجوارح جميعا، فلا يكون إيذاء، وبذلك يقلل عدد المشوهين ولا يكثر، ويكثر النفع ولا يقل[١]، ولما أوجب سبحانه هذا، رخص لهم في النزول عنه، فأشار إلى العامل الإنساني وهو العفو والصفح والتسامح، ولم يكن ذلك في شريعة التوراة، إذ كان القصاص حتما لا تنازل فيه، ولا تصدق به، ومن ثم فلا كفارة.

ويحسن أن نقول كلمة فشرع الله في الإسلام يلحظ الفطرة كما لحظها شرع الله في التوراة حتى إذا ضمن لها القصاص المريح؛ راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو عفو القادر على القصاص ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾[٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (رخص الله لهذه الأمة ووسع عليها بالدية ولم يجعل لبني إسرائيل دية فيما نزل على موسى وكتب عليهم)[٣].

وقد اختلف المفسرون في المعني به في هاء ﴿ لَّهُۥ ﴾ على قولين:

أحدهما: أنها إشارة إلى المجروح وولي القتيل، وذلك أن المجروح أو ولي المقتول إذا تصدق بالقصاص كان ذلك كفارة لذنوبه، وهو قول ابن مسعود وعبد الله ابن عمرو بن العاص والحسن والشعبي.

عن عبادة بن الصامت (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: {ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به}[٤]. وقال الحسن: (ينادي مناد يوم القيامة: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا من قد عفا).

---

[١] ينظر: زهرة التفاسير: ١/٢٢١٠.

[٢] ينظر: نظم الدرر: ٢/٤٦٥، وروح المعاني: ٣/٣١٧، وفي ظلال القرآن: ٢/٨٩٨.

[٣] المحرر الوجيز: ٢/١٩٧.

[٤] مسند الإمام احمد: ٣٧/ ٣٧٥ (٢٢٧٠٢)، وقال الارنؤوط: صحيح بشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح.

والثاني: أنها إشارة إلى الجارح إذا عفا عنه المجروح، وذلك أن العفو كفارة للجارح عن ذلك الذنب، فكما أن القصاص كفارة فكذلك العفو كفارة، وأما أجر العافي فعلى الله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كفارة للجارح، وأجر الذي أصيب على الله). وهو قول مجاهد وزيد بن أسلم أيضا[١].

قال ابن عاشور: «المراد بـ ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ ﴾ من تصدّق منهم، وضمير ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى ما دلت عليه باء العوض في قوله ﴿ بِٱلنَّفْسِ ﴾ الخ، أي من تصدّق بالحقّ الذي له، أي تنازل عن العوض.

وضمير ﴿ لَّهُۥ﴾ عائد إلى ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ ﴾. والمراد من التصدّق العفو، لأنّ العفو لمّا كان عن حقّ ثابت بيد مستحقّ الأخذ بالقصاص جُعل إسقاطه كالعطيّة ليشير إلى فرط ثوابه، وبذلك يتبيّن أن معنى ﴿ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ أنّه يكفّر عنه ذنوباً عظيمة، لأجل ما في هذا العفو من جلب القلوب وإزالة الإحن واستبقاء نفوس وأعضاء الأمّة»[٢].

ومما يشاهد أن الفعل ﴿ تَصَدَّقَ ﴾ يحتاج إلى اثنين هما: متصدق ومتصدق عليه.

والحق سبحانه يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر ما تسامح فيه لأخيه، وهنا يحنن الله الخلق بعضهم على بعض؛ لذلك تأتي المسألة هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه في التصدق، وسيظل المتصدق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجارحة من جوارحه لصاحب القصاص[٣].

أضف إلى أن الصدقة جاءت بمعنى العفو على التأويلين، إلا أن التأويل الأول بيان لأجر من عفا، وترغيب في العفو، والثاني بيان لسقوط الإثم عن القاتل أو الجارح إذا عفي عنه[٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٣٦٥/١٠-٣٦٧، وبحر العلوم: ٤١٩/١، والنكت والعيون: ٤٤/٢، ومعالم التنزيل: ٥٦/٢، والمحرر الوجيز: ١٩٨/٢، وزاد المسير: ٥٥٤/١، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠٨/٦، والجواهر الحسان: ٣٨٩/٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١٦/٦.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي: ٣١٧٠/٥.

(٤) ينظر: التسهيل: ١/ ٢٣٣.

ومع هذا التمكين التام للمجني عليه من الجاني فقد رغب الإسلام المجني عليه في العفو عن الجاني حتى تشيع المحبة والمودة بين أفراد الأمة، ووعده على ذلك بتكفير خطاياه، وارتفاع درجاته عند الله تعالى[١].

قال الطبري: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال المجروح فلأن تكون (الهاء) في قوله (له) عائدة على (من)، أولى من أن تكون من ذكر من لم يجر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح، وأحرى، إذ الصدقة هي المكفرة ذنب صاحبها دون المتصدق عليه في سائر الصدقات غير هذه، فالواجب أن يكون سبيل هذه سبيل غيرها من الصدقات»[٢].

وهذا النص يفتح باب التسامح من المجني عليه، إذ العقوبة لم يقصد بها الانتقام المجرد، بل قصد الزجر، وإشعار الجاني بأن سوط العقاب مسلط عليه؛ ولذلك دعا القرآن الكريم إلى العفو إن كان له موضعه، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة].

فكان في هذا النص تحريض على العفو بذكر الأخوة الرابطة، وكان النبي (ﷺ) كلما حكم بالقصاص دعا إلى العفو بعد أن يعطي لولي الدم أو المجني عليه زمام الأمر وتمكينه من القصاص ليشفي غيظه، ويردع الجاني بجعل حياته أو جسمه رهن إشارته[٣].

ثم إنه تعالى عاد فحذّر من مخالفة حكم الله فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لينبه على أنّ التّرغيب في العفو لا يقتضي الاستخفاف بالحكم وإبطال العمل به لأنّ حكم القصاص شُرع لحكم عظيمة: منها الزجر، وجبر خاطر المعتدى عليه، والتفادي من ترصّد المعتدى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم.

فإبطال الحكم بالقصاص يعطّل هذه المصالح، وهْو ظلم، لأنّه غمص لحقّ المعتدى عليه أو ولِيّه، وأمّا العفو عن الجاني فيحقّق جميع المصالح ويزيد مصلحة التحابب لأنّه عن طيب نفس، وقد تغشى غباوة حكّام بني إسرائيل على أفهماهم فيجعلوا إبطال الحكم بمنزلة العفو، فهذا هو وجه إعادة التّحذير عقب استحباب العفو. وبه يتعيّن رجوع هذا التّحذير إلى بني إسرائيل مثل سابقه.

---

[١] ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: ١٧٣/٤.

[٢] جامع البيان: ٣٦٩/١٠.

[٣] ينظر: زهرة التفاسير: ٢٢١٣/١ـ ٢٢١٤.

والمراد بالظّالمين الكافرون لأنّ الظلم يطلق على الكفر فيكون هذا مؤكّداً للّذي في الآية السابقة.

ويحتمل أنّ المراد به الجور فيكون إثبات وصف الظلم لزيادة التشنيع عليهم في كفرهم لأنّهم كافرون ظالمون[١].

ومجيء ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ مع اسم الإشارة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ وتعريف الخبر يستفاد منها أن الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية، وذكر الظلم هنا مناسب لأنه جاء عقب أشياء مخصوصة من أمر القتل والجرح فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص وعدم التسوية فيه[٢].

يفهم منه أن كل من أعرض عما أنزل الله من القصاص المبنى على قاعدة العدل والمساواة بين الناس وحكم بغيره فهو من الظالمين، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر وهضم حق المفضل عليه وظلمه[٣].

وهكذا ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه العبارة، بحكم لا يتغير ولا يتبدل، والذي كان في شريعة موسى (عليه السلام) والنبيين من بعده، والقرآن كذلك.

وفيه إشارة إلى أن العدالة التي أوجبتها المساواة بين الجريمة وعقوبتها من غير هوادة من أخذ المجرم بجريمته إذا أصر عليها ولى الدم أو المجني عليه؛ هي حكم الله تعالى الخالد الباقي المنزل على رسله.

كما وأنها نَعَت بني إسرائيل إهمالهم لأحكام الله وتهافتهم على ما يتفق مع أهوائهم وتحذير الأمة من المشاكلة فيما وصلوا إليه من انحطاط[٤].

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ٢١٧/٦.

[٢] ينظر: فتح القدير: ٥٤/٢، وفتحُ البيان: ٤٣٥/٣.

[٣] ينظر: المنار: ٣٣١/٦، وتفسير المراغي: ١٢٦/٦.

[٤] ينظر: زهرة التفاسير: ٢٢١٤/١، والتفسير الوسيط للطنطاوي: ١٧١/٤.

الخاتمة

لا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أجمل أهم النتائج فيما يأتي:

١. إن النبي (ﷺ) هو النبي الخاتم؛ والكتاب المنزل عليه هو الكتاب الخاتم، لذا جاءت تعاليمه متكاملة شاملة لنواحي الحياة في جميع أصقاع المعمورة.

وعليه فهو المهيمن على ما سبق من الأصول والفروع، ومنه جاءت النصوص متشابة في المبنى والمعنى معا، وما ذاك إلا لأهمية تلك الموضوعات في جميع الأزمان والأوقات، إذ إن القرآن ركز عليها صراحة دون تلميح.

٢. البشارة الصريحة ببعثة النبي (ﷺ) وذكر بعض صفاته الشريفة، والتي كان مبلغها تسع صفات تواتر ذكرها في الكتابين المقدسين التوراة والإنجيل معا، وهو تأكيد منه تعالى عليهم لعلمه المسبق بهم أنهم سينكرون مبعثه ويشنون عليه أبشع الهجمات وبمختلف اللهجات لا يثنيهم عنه شي، فأديان السماء لا تتعاند فكلها متكاتفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زمانا ومكانا.

٣. التلائم في ذكر صفات الأمة الإسلامية من الصحابة الكرام ومن تبعهم في التوراة والإنجيل معا بصفات شتى؛ كانت من المناسبة بالأهمية بمكان، إذ كل صفات كان لها الدور الأكبر في تمييز حال اليهود والنصارى مما صاحبهم بتمثل اليهود في حياة مادية بحتة فناسب مقامها ذكر الجانب العبادي فيها، وذكر جانب إعمال الجانب المادي مع النصارى لإهمالهم إياه وتركيزهم البحت على الجانب الروحي بخلاف احدهما الأخر في جانبي الاهتمام.

والإشارة لنا أن ننتهز الفرصة لنصحح الأخطاء ونستأنف حياة صافية تربطنا بالسماء رباطا يجمع بين دين قيمي يتطلب منا حركة الدنيا وحركة الآخرة كي لا نبتعد عن المنهج الإلهي في الاستخلاف لبناء الحضارة الإسلامية المنشودة.

٤. التأكيد الإلهي على عقد الصفقة ببذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمته، فهو وعد معروف مشهور مؤكد مكرور في التوراة والإنجيل، وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيله في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري، لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه.

ومما يؤسف له أن الأمة قد أسقطت كلمة الجهاد من قاموسها السياسي، فأذلها الله لموافقتها الغرب في مساواة كلمة الجهاد بالإرهاب.

علما أن الأمر لم يترك سدى دون تقنين فثمة صفات عالية لمن أراد أن يكون داخلا في هذه الصفقة الإلهية، فهي ليست بدعا من الكلام أو ضربا من الخيال، بل واقع فيه ثمن، وان الصفات هذه لا بد لها من مجابهة النفس للامتثال بها والحصول عليها في واقع السلم قبل الخوض في المعامع، ومن لم ينجح في السلم فهو بلا ريب لم يقاوم في حالة المواجهة والاحتدام.

٥. إخبار الله تعالى بوراثة الأرض لعباده الصالحين العاملين بمقتضى الأوامر واجتناب النواهي والسعادة لهم في الدارين معا، وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله وتجري سنته فيهم.

لذا ينبغي علينا أن نتسربل بتقوى الله باتقاء كل ما قص علينا من ذنوب الأمم التي أهلكتهم وزال ملكهم بها، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم إلى آخر ما نراه، فما من أمة تهاونت في هذه الأمور أو في شيء منها إلا حكم عليها بالفناء والزوال، وتواريخهم تدل على صدق ما نقول.

٦. الاشتراك في بعض التشريعات بين الإسلام والديانات الأخرى ما يشهد أن مصدرها جميعا من عند الله تعالى رغم تحريفها، فالله تعالى كتب فرضا على بني إسرائيل في القتول والأعضاء وشرع القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس من غير هوادة حكما خالدا إلى يوم الدين لقيمومية الذات الإنسانية.

٧. التركيز القرآني على الأمور الخمسة السالفة في الذكر إشارة إلى أن الأمم مجمعة عليها، وعندها فلا بد من إتباعهم للنبي (ﷺ)، ولا بد لنا جميعا بناء حضارة إسلامية تأسيا بصفات الجيل المثالي المتمثلة في خير القرون، ولا بد أيضا لهذه الحضارة من حماية تحميها بما نص عليه من القيام بالجهاد بالنفس والمال واللسان والسنان.

ومن ثم إذا توافر ذلك فثمة وراثة الأرض لعباد الله الصالحين القائمين بأوامر الله امتثالا والتزاما، وعندها تسود الحياة بتطبيق شرع الله وأعلى ما فيها توفير الأمن والأمان وأعلى من ذلك هو الحفاظ على كيان الإنسان وجعل القصاص الذي فيه الحياة لمن خالف الأمر ومبتغاه، وهذا أسمى ما تدعوا له الإنسانية من قيم ودعائم لاستمرارها في كونها المنشود.

٨. الدعوة إلى إتمام دراسة ما في القرآن الكريم من إشارة صريحة لما في الصحف السماوية من معان سامية ليتسنى لنا معرفة ماهية الإشارة الإلهية فيها وإخراج مكنونه إلى ارض الواقع.

٩. العمل على دراسة مستفيضة لإحصاء ما جاء من نصوص قرآنية تلميحية لما جاء في الكتب السابقة لمعرفة المسائل الأصولية والفرعية ذات التشابه ومدى التركيز عليها وإبقائها خالدة إلى زماننا الحاضر، والعمل بجد على دحض ما جاء من مقرراتهم المخالفة لما جاء من نص القرآني خال من التحريف والتصحيف.

١٠. إدخال هذا الفن كشيء أساسي في علم الأديان ودراسته في علم المقارنات لما فيه من أهمية في مقارعة الأعداء والسعي إلى إيصالها إلى العالم الغربي لإدراك معاني القرآن ليكون أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله تعالى في الدخول إلى الإسلام.

المصادر والمراجع

١. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستِشراق، الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢. أحكام القرآن، أبو بكر القاضي محمد بن عبد الله بن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.

٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٦. إظهار الحق، محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي (ت: ١٣٠٨هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق : الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٧. إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٨. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

٩. بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)، تحقيق: الدكتور محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

١٠. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض وجماعة، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
١١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
١٢. التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
١٣. تفسير ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
١٤. تفسير التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (ت: ٢٨٣هـ)، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
١٥. التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
١٦. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم.
١٧. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ.
١٨. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.
١٩. تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٢٠. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢١. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
٢٢. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٢٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ.
٢٤. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٢٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢٦. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢٧. الجامع الصحيح المختصر، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت: ٦٧١ هـ) ، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٩. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، دراسة وتحقيق: علي بن حسن بن ناصر الألمعي وغيره، دار الفضيلة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٣٠. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)،تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٣١. حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٣٢. خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ
٣٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
٣٤. روح البيان، أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت: ١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت.
٣٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٣٦. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣٧. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون, ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.
٣٨. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.
٣٩. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٤٠. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تذييل بأحكام الأحاديث للألباني، دار الفكر، بيروت.
٤١. سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى ألبابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
٤٢. عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، على أحمد عبد العال الطهطاوى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٤٣. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٤٤. الغزو الثقافي، لمحمد الغزالي، دار نهضة، مصر، الطبعة الأولى.
٤٥. الفتاوى الكبرى لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
٤٦. فتحُ البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٤٧. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٤٨. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود المعروف بالشيخ علوان (ت: ٩٢٠هـ)، دار ركابي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
٤٩. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢هـ.
٥٠. قواعد في منهج الدعوة إلى الخير، الدكتور فريد الأنصاري، مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي،١٤٢٣هـ ـ٢٠٠٢م.

٥١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.
٥٣. لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٥٤. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي (ت: ٧٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.
٥٥. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على المعروف بـ (ابن منظور) (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
٥٦. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت: ١٣٥٩هـ)، تحقيق وتعليق وتخريج: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
٥٧. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٥٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥٩. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت: ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

٦٠. مسند الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٦١. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٢. معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٦٣. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت: ٣١١هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٦٤. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٦٥. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٦٦. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٦٧. ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله، الدكتور فريد الأنصاري، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
٦٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
٦٩. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧٠. وحي القلم، مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ٢٠٠٠م.

٧١. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض وآخرون، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ١٩٩٤م.

٧٢. وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.